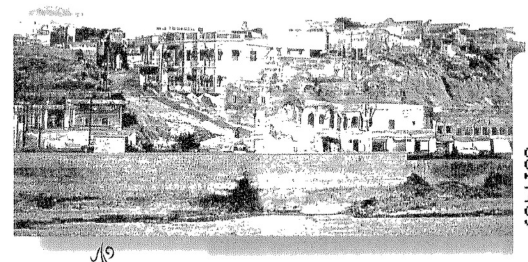
مير بصري

أعلام التركمان والأدب التركي في العراق الحديث





أعلام التركمان

و

الأدب التركي في العراق الحديث



EMINENT TURKMANS AND TURKISH LITERATURE IN MODERN IRAQ

BY

MEER BASRI

First edition in the U.K 1997
Published by AL - Warrak publishing LTD
132 Hammersmith Rd
LONDON W6 7JP.
ISBN : 1 900 700 050

أعـــــلام التـــــركمـــــان

ميـــــــر بصـــــــري

الطبعـــــة الأولـــــى 1997
دار الـورّاق للنشـر - لنـدن

التوزيع - بريطانيا - أوروبا - أمريكا (مكتبة الورّاق - لندن)

محتويات الكتاب

مقدمة

للأستاذ عزيز قادر الصمانجي

الأستاذ مير بصري غني عن التعريف، ولد في بغداد في 19 أيلول 1911 ودرس في مدرسة التعاون ومدرسة الاليانس، واختصّ بالاقتصاد والآداب العربية والعالمية.

عمل في وزارة الخارجية وكان سكرتيراً للوزارة ووكيل مدير التشريفات. ثم التحق بعد ذلك بغرفة تجارة بغداد وكان مديرها ورئيس تحرير مجلتها. وأشغل وظائف أخرى وكان معاون المدير العام لجمعية التمور وعضو المجلس العام للواء بغداد الخ. مثل العراق في معرض باريس الدولي سنة 1937 ومؤتمر التجارة الدولي في نيويورك (1944) والمؤتمرين الدوليين للمستشرقين في كمبريدج ومونيخ ومؤتمر أدباء العرب المنعقد في بغداد 1969 الخ.

وقد غادر العراق سنة 1974 وأقام في لندن. ومن مؤلفاته: مباحث في (الاقتصاد العراقي)، رجال وظلال (قصص)، أغاني الحب والخلود (ديوان شعر)، رحلة العمر (مذكرات)، ومن بين

مؤلفاته في مجالات أخرى، كتب تتضمن تعريف رجالات العراق وإسهاماتهم الثقافية والأدبية، والخدمات الجليلة التي قدموها وهي: اعلام اليقظة الفكرية في العراق، اعلام السياسة، اعلام الكرد، اعلام الأدب، اعلام اليهود في العراق الحديث. وهذا هو كتابه الأخير الموسوم (باعلام التركمان ـ والأدب التركي في العراق الحديث)، يضعه بين أيدي القارىء العراقي والعربي، ليعرف فيه اعلام التركمان وآثار الأدب التركماني في بناء صرح الثقافة العراقية في عراقنا المعاصر، مشيراً إلى إنجازات هؤلاء الرجال وإسهاماتهم القيّمة في المجالات السياسية والعسكرية وفي الأدب والشعر ومجالات الثقافة والإدارة بشكل عام.

وتجدر الإشارة إلى أن مضامين الكتب المشار إليها للكاتب، لا يكاد يجد القارىء فيها نقصاً ما، سوى خلوّها من ذكر اسم علم من أعلام العراق وإسهاماته القيّمة في شتّى المجالات من الأدب والشعر والتحقيقات، وهو المؤلف نفسه، الأستاذ مير بصري، ولئن يعود سبب هذا النقص، باعتقادنا إلى ثقل الحديث عن الذات عند أناس أجلّاء من أمثاله وتواضعه، وعليه يقع مثل هذا الاستحقاق على عاتق الغير، لذا من الواجب علينا ونحن ندوّن ملاحظاتنا المتواضعة هذه، أن نتولى أمر إكمال هذا النقص بتقديم نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية ولو

باقتضاب شديد عن إسهاماته في مجال التأليف، فضلاً عن الخدمات الجليلة التي قدمها من خلال الوظائف الحكومية التي تسنمها قبل أن ينتقل إلى المنفى ويكمل ما بدأ به في أرض الوطن وذلك بمواصلة مجهوداته، وان كتابه الأخير هذا هو من ضمن تلك المجهودات يظهر إلى حيّز الوجود في المملكة المتحدة. وهذا ما فعلناه في الأسطر الأولى من هذه الملاحظات حول الكاتب.

لقد أسدى الخدمة لأبناء القومية التركمانية، كما سبق له أن خدم أبناء العراق من العرب والكرد وغيرهم.. وذلك من خلال تعريفه لرجالاتهم البارزين وإسهامات هؤلاء الأفاضل في شتى الميادين الأدبية والثقافية، والخدمات الجليلة التي قدموها لبناء العراق الحديث.

فلا بدّ لي نيابةً عن أبناء قومي (التركمان) أن أعرب بشعور عميق عن خالص شكري وتقديري، وأثمن هذا المجهود الرائع للكاتب الأستاذ مير بصري الذي يعتبر بحق خدمة نادرة يقدمها لأبناء القومية الثالثة من قوميات الشعب العراقي، لكي يتعرّفوا على إسهامات رجالاتهم في بناء صرح الحضارة العراقية الحديثة.

وتجدر الإشارة، وللأسف الشديد، إلى أنه رغم المساهمات والعطاءآت القيّمة لرجالات التركمان في أحرج

مرحلة كان العراق يمرّ بها ـ مرحلة تأسيس الدولة العراقية ـ التي كانت بأمسّ الحاجة إلى الكوادر المتعلمة والمثقفة من المدنيين والعسكريين وغيرهم من الأدباء والشعراء والفنانين لبناء العراق الحديث وصرح حضارته. إلاّ أنه بعد فترة وجيزة تنكرت الحكومات العراقية المتعاقبة لهم ولإسهاماتهم وحرمتهم من أبسط حقوقهم الثقافية، بل مسحت هويتهم القومية وجذورهم التاريخية في العراق في العهد الأخير، باتباع سياسة الدمج القسرية وتغيير الواقع السكاني وإجبار أبنائهم على مغادرة مسقط رأسهم إلى مناطق أخرى من العراق وخارجه.

إن كتاب «أعلام التركمان ـ والأدب التركي في العراق الحديث» يمكن تقسيمه بشكل عام إلى قسمين:

يتناول الكاتب في القسم الأول منه، بعد تقديم مقدمة أو نبذة مختصرة عن تاريخ التركمان وعلاقتهم بالعراق، أعلام التركمان المخضرمين من السياسيين والعسكريين الذين نقلوا الخبرة والتجربة التي حصلوا عليها من خلال الممارسة العملية في الوظائف المختلفة، المدنية والعسكرية في الدولة العثمانية إلى العراق، فضلاً عن حصيلة العلوم والمعرفة التي تلقوها في المدارس والمعاهد وجامعات الدولة العثمانية... وكذلك الأدباء والعلماء وشعراء التركمان الذين نبغوا في تلك الميادين

وساهموا بنتاجاتهم الفكرية والأدبية والشعرية في بناء صرح الحضارة العراقية الحديثة.

وفي القسم الثاني من الكتاب تناول الكاتب الحديث عن الأدب التركي في العراق الذي يمكن اعتباره فرعاً صغيراً من شجرة الأدب التركي الضخمة، التي تمتد فروعها من منغوليا شرقاً حتى البحر المتوسط غرباً. وحيث ان بغداد أصبحت مركزاً هاماً للأدب والشعر التركي في أواخر العهد العثماني وكان لها مكانتها المرموقة في العالم العربي.

فقد برز خلال الحقبة التاريخية العديد من الأدباء والشعراء المولعين بالأدب.التركي من العرب وغيرهم، وهم لا ينتمون بالضرورة إلى القومية التركمانية، فوضعوا دواوين شعرية باللغة التركية إلى جانب اللغة العربية. وقد أورد المؤلف في هذا القسم ذكر العديد من الشخصيات العراقية التي شغفت بالأدب التركي والتاريخ العثماني.

ولم يغفل الكاتب ذكر نوادر من شعراء الأتراك والعراقيين وأدبائهم أمثال الزهاوي والرصافي وغيرهما، وكذلك نوادر تاريخية من القصص التاريخية في عهد الولاة العثمانيين، ومجريات الأمور في الحياة اليومية في بغداد، وفي ميادين الأدب والشعر والإدارة تتخللها إشارات إلى إنجازات بعض

المصلحين من الولاة والعراقيين الذين تولوا مسؤولية إدارة البلاد في الحقبة الزمنية المتأخرة من الحكم العثماني.

فعلى هذا الأساس فإن كتاب «أعلام التركمان ـ والأدب التركي الحديث» في الوقت الذي يأتي مكملاً لما احتوته الكتب السابقة للكاتب، لتعريف أعلام العراق من العرب والكرد وغيرهم، يترك المجال للآخرين أن يضيفوا إلى مجهوده القيم وأن يحققوا في إسهامات الرجال من التركمان من الجيل الحالي من الأدباء والشعراء والسياسيين والعسكريين وغيرهم.

وهكذا فقد أكرم أستاذنا الفاضل أبناء الشعب العراقي بإبقاء من غادر منهم الحياة أحياءً في ذاكرة التاريخ وأثرهم في متناول يد القرّاء والباحثين من العرب والكرد عموماً والتركمان على وجه الخصوص.

ونحن إذ نختتم هذه الكلمات بالإعراب عن جزيل الشكر والامتنان للأستاذ الكاتب مير بصري متمنيين له الصحة ومديد العمر.

عزيز قادر الصمانجي
رئيس الحركة التركمانية
الوطنية ـ الديمقراطية
لندن

كلمة بين يدي الكتاب

هذه صفحات وتراجم كتبتها في أوقات مختلفة ورأيت جمعها في كتاب بعنوان «أعلام التركمان والأدب التركي في العراق الحديث». يقدم الكتاب معلومات شتّى عن التركمان، هذا الجزء المهم من الشعب العراقي الكثير الجماعات والفئات، وقد لعب أبناؤه ادواراً خطيرة في تاريخ العراق قبل الفتح التركي وبعده، ثم بعد استقلال البلاد ونشوء حياتها البرلمانية، ولا يزال للتركمان مكانتهم في حياة القطر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية.

يتعلق القسم الثاني من الكتاب بالرجل الجليل الفذ محمود صبحي الدفتري وأسرته التي ارتبطت خلال قرن واحد أو نحو ذلك ببغداد وشؤونها البلدية. ولعل القارىء يجد شيئاً من التنافر بين الصفحات الأخيرة التي نُقِلَتْ عن محمود صبحي بك، وهي تلقي اضواء على العراق ومقامه في الدولة العثمانية التي حكمته زهاء أربعمائة سنة وعلى الأدب التركي الذي ازدهر في ربوعه، وسائر شؤون السلاطين واخبار الولاة. لقد رأيت أن

هذه الصفحات جديرة بالتسجيل لأنه ما ورد فيها قد ضاع في غيابة النسيان بعد أن استردّت بلاد الرافدين طابعها العربي الأصيل، بما في ذلك من حكم وأدب وأخلاق وعادات.

وختاماً لا بد لي أن أسدي جزيل الشكر إلى الصديقين الكريمين الأستاذ نجدت فتحي صفوت والأستاذ العقيد المتقاعد عزيز قادر على تفضلهما بقراءة مسودات الكتاب وابداء الملاحظات القيّمة بشأنه.

لندن أيلول 1996

مير بصري

توطئة التركمان وعلاقتهم بالعراق

التركمان من الأقوام القديمة التي سكنت شمال شرقي العراق وكان لها شأن مذكور في تأريخه. قال مؤرخ العراق عباس العزاوي في «تاريخ العراق بين احتلالين» (الجزء الثالث) إن القبائل التركمانية أو التراكمة كانت مواطنها بين بلخ وبحر الخزر ونهر أمودريا والروس وإيران.

وقد اشتهر منهم السلاجقة الذين تسلطوا على الدولة العباسية سنة 1055م وأنقذوا الخليفة القائم بأمر الله من حكم الدولة البويهية. وقد دخل السلطان طغرل بك بغداد، وهو من قبيلة الغُزّ التركمانية. وتوفي في أيلول 1063 وخلفه آلب أرسلان ابن أخيه شاكر بك، وتعاقب سلاطين الدولة السلجوقية على الحكم إلى عهد الخليفة المقتفي لأمر الله الذي ارتقى سدّة الخلافة سنة 1136 وتمكن من خضد شوكتهم.

واستولى بيرام خواجة رئيس عشائر قره قوينلي على الموصل وسنجار سنة 1376م، وعرف باسم السلطان بيرام بك. وحكمت الدولة البارانية (قراقوينلو) العراق من سنة 1411 حين

استولت على بغداد التي دخلها شاه محمد بن قرا يوسف وحكمها بالنيابة عن والده. واستمرّ حكم هذه الأسرة إلى سنة 1470 حين فتح السلطان حسن الطويل بغداد على يد ابنه مقصود بك فأسس فيها الدولة البايندرية (آق قوينلو)، وكان السلطان حسن حاكماً في أنحاء ديار بكر. ودام حكم هذه الأسرة إلى سنة 1508 حين قضى عليها الشاه إسماعيل الصفوي فاتح بغداد.

ذكر لنا الدكتور مصطفى جواد في كتابه «سيدات البلاط العباسي» أخباراً طريفة عن السلطان طغرل بك السلجوقي واتصاله بالأسرة العباسية. فقد رغب في توثيق الصلة بأسرة الخلافة بعد أن استولى على العراق وأزاح الدولة البويهية المتداعية، فقام بتزويج أرسلان خاتون ابنة أخيه داود جغري بك للخليفة القائم بأمر الله في سنة 1056م. ثم خطب طغرل بك ابنة الخليفة لنفسه، فثقل الطلب على الخليفة وانزعج منه لعدم الكفاءة. وتعرض القائم للتحقير من جانب رسل السلطان، وتعّرضت دار الخلافة للهجوم والقبض على اللاجئين إليها، وأدخل رئيس العراقين يده في إقطاعات الخليفة. ولم يكن من هذا إزاء ذلك إلا أن يستجيب إلى الزواج مكرهاً خوفاً من اتساع الخرق، وتمّ العقد بظاهر تبريز في الاسم دون الحقيقة، فنثر السلطان الذهب واللؤلؤ، وتكلم باللغة التركية بما معناه الشكر والدعاء. وقال انه المملوك القيّم الذي قد سلم نفسه ورقّه وما

حوته يداه إلى الخليفة، وأرسل الهدايا الثمينة من غلمان وخيل وجواهر ودنانير، وتوجّه إلى بغداد، وكان قد كبر وأسنّ وقارب الموت، وكان زواجه الاسميّ بتلك الشابة إيذاناً بوداعه للدنيا.

وزفّت ابنة الخليفة إلى طغرل بك في شهر شباط 1063 في دار المملكة بظاهر بغداد، فجلست على سرير ملبّس بالذهب. ودخل طغرل بك حجرتها فقبّل الأرض بين يديها ودعا لأبيها، ثم خرج دون أن يجلس. أما السيدة فلم تقم له ولا كشفت البرقع عن وجهها ولا رأت وجهه لحسن حظها، وظلّ السلطان وحاشيته في صحن الدار يرقصون ويغنّون باللغة التركية فرحاً وسروراً. وظل أياماً يدخل إلى غرفتها ويقبّل الأرض وينفذ إليها بهدايا الذهب واللؤلؤ والجواهر، واستمرت الولائم في دار المملكة أسبوعاً كاملاً. ثم استأذن السلطان بالسفر إلى بلاد إيران واستصحب السيدة العباسية معه بعد أن امتنعت وأبت، فوصل إلى الريّ مريضاً مأيوساً من سلامته ولم يلبث أن قضى نحبه، وتولى السلطنة ابن أخيه ألب أرسلان محمد بن داود. وأذن لبنت الخليفة يالرجوع فعادت إلى بغداد وأقامت في دار الخلافة، وخفيت أخبارها بعد ذلك حتى توفيت سنة1103.

ويذكر التأريخ أن خواتين سلجوقيات أخريات تزوّجن من خلفاء بني العباس، وهنّ، كما ذكر مصطفى جواد، بنت جلال الدولة ملكشاه بن ألب أرسلان التي زوّجت للخليفة المقتدي

بأمر الله سنة1082. وزوّجت بنت ملكشاه الثانية للمستظهر بالله (1109)، وزوّجت فاطمة خاتون بنت السلطان محمد بن ملكشاه للمقتفي لأمر الله «محيي شرف الدولة العباسية ومعيد استقلالها ومجدد جلالها ورافع لوائها» 1137.

وزوّجت زبيدة بنت الخليفة المقتفي للسلطان مسعود سنة 1140، وكانت صغيرة السنّ، واشترط أن يكون الزواج شكلياً لا يقصد منه سوى التشرف واكتساب الأجر. وأخيراً زوّجت سلجوقة خاتون بنت الملك قليج ارسلان ملك قونية وما جاورها إلى الخليفة الناصر لدين الله سنة 1186.

الأدب التركي القديم في العراق

كانت بغداد في القرنين الخامس عشر والسادس عشر مركزاً مهماً للأدب التركي، وفي مقدمة أولئك الأدباء فضل الله الحروفي التبريزي مبتدع النحلة الحروفية الذي قتل سنة 1401م. وخلفه تلميذه نسيمي البغدادي الشاعر من الحروفيين الغلاة أيضاً، وقتل سنة 1418 وقيل 1433. وله ديوان شعر تركي وفارسي، أما شعره العربي فليس بشيء. واسمه السيد عماد الدين.

وكان أشهر الشعراء محمد بن سليمان البغدادي البياتي المعروف بـ «فضولي»، ويلقب عند العثمانيين بـ «رئيس

الشعراء»، وتوفي بالطاعون سنة 1555.

وله نظم باللغتين الفارسية والعربية أيضاً.

ومن الشعراء فضلي بن فضولي المتوفى بعد سنة 1555، وشمسي (توفي: سنة 1567) وولده رضائي (توفي: سنة 1555) وعهدي (توفي: سنة 1593) وحسيني (توفي: سنة 1577) وعثمان المعروف باسم روحي (توفي بالشام سنة 1605)، وقد ألف عهدي كتابه «گلشن شعراء». واشتهر نظمي البغدادي المتوفى سنة 1663، وهو والد المؤرخ مرتضى مؤلف «گلشن خلفا» وسبط عهدي. وقد مدح نظمي السلطان مراد الرابع حين فتح بغداد وولي وظيفة في كتابة ديوان الولاية.

وتوفي عن سبعين عاماً فرثاه الشعراء ابنه مرتضى وسيفا وغوثي.

كان أكثر هؤلاء الشعراء من رجال التصوّف مبتلين بالعشق الإلٰهي يسيرون على سنّة جلال الدين الرومي ويونس عمرو (إمره) الدرويش.

ومن الأدباء الذين ورد ذكرهم في كتاب «تذكرة الشعراء أو شعراء بغداد وكتابها في عهد الوالي داود باشا» من تأليف عبد القادر الخطيبي الشهرباني (نشره الأب انستاس ماري الكرملي سنة 1936:

1 ـ آصف زادة محمد صالح أفندي المعلم الكركوكي، وكان فقيهاً وإمام أحد المساجد، وكان له ديوان شعر، لكنه مزّقه وانصرف عن النظم وتفرّغ للزهد والعبادة. وتوفي سنة 1821 عن نحو سبعين سنة.

2 ـ بدري مصطفى أفندي ابن علي أفندي الكركوكي، كان شاعراً وله اطلاع في العلوم العربية وولع بالفارسية. توفي: سنة 1821 عن نحو 80 عاماً.

3 ـ حاوي رسول أفندي ابن الملا يعقوب الماهوني، كان شاعراً ومنشئاً، وضع كتاب دوحة الوزراء (بالتركية). وقد هاجر من كركوك إلى بغداد سنة 1805 ووظف كاتباً في المصرفخانة. توفي سنة 1826. وكان اخوه الأصغر ثاقب خضر أفندي موظفاً في ديوان ولاية بغداد في عهد الوالي داود باشا يكتب أكثر تحريرات الولاية، وتوفي سنة 1818 ولم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره.

4 ـ أبو بكر أفندي ابن إسماعيل، كان مفتي كركوك وقدم إلى بغداد في عهد الوالي داود باشا واصبح نائب القاضي فيها. وتوفي في الطاعون سنة 1831.

القبائل التركية والتركمانية

ذكر مؤرخ العراق عباس العزاوي في الجزء الثالث من «تاريخ العراق بين احتلالين» ان الترك وجدوا في العراق قبل أمد طويل من المغول، ودامت علاقتهم خلال القرون، لكنهم كانوا قلّة حتى في أيام تسلطهم. وتكاثر عددهم شيئاً ما في عهد المغول. ومال إلى العراق أقوام وقبائل عديدة، لكنهم ذابوا في المدن على مرّ الزمن أو سكنوا قرى خاصة بهم أو مختلطة مع غيرهم.

وذكر العزاوي القبائل التركمانية فقال إن من أقدمها «البيات»، وهم يقطنون لواء كركوك ووجدوا في أنحاء واسط. ثم مال قسم كبير منهم إلى المدن واختلطت بهم عشائر عربية. ومن أشهر فروعهم: البسطملية (أفخاذهم المحمودية وعز الدينية والليبالي)، پير أحمد (أفخاذهم البو علي الناصر والبو خالد، وهم مختلطون تركاً وعرباً)، كله وند (وفيهم كرد)، رويزات (وفيهم عرب)، إسماعيل بكلية (رئيسهم فارس بك بن الحاج محمد بك وهو رئيس عموم البيات)، قره ناز، براوجلية، حسن درلية، الامرليه، مرادلية، دلالوه، البو ولي، قوشجية

(رئيسهم حميد آغا، ومنهم آل كنّة في بغداد)، ينكيجه (وفيهم كرد).

ورد ذكر هؤلاء البيات في «ديوان لغات الترك» وفي «اللهجة العثمانية» لأحمد وفيق باشا، وهم منتشرون في العراق وخارجه. وجاء ذكرهم أيضاً في «تاج العروس» وفي أوليا جلبي. ومنهم فضولي الشاعر البغدادي الشهير.

ومن القبائل التركمانية الأخرى التي ذكرها العزاوي: قراولوس، من قبائل المغول، وقد عاشوا قرب مندلي، الخلجية، صارلية (وأشهر قراهم دربند سارلو، زنكل، قوله بند، تل الحميد، كبرلو، زاره خاتون الخ).

وذكر أحمد حامد الصراف في كتابه «الشبك» ان هؤلاء جماعات من الأتراك الغلاة تقطن أكثر من عشرين قرية في الجانب الشرقي من الموصل، ويتراوح عددهم بين 10 آلاف و15 ألف نسمة. ونقل الصراف عن الدكتور داود الجلبي أن الشبك كانوا إلى ما قبل ثلاثين أو اربعين سنة بكتاشية يراجعون جلبي قونية ويتلقون منه الارشاد. وكان أحدهم إذا ذهب إلى زيارة كربلاء يراجع وكيلاً لجلبي قونيه هناك. ومن أشهر قراهم: دراويش، قرة تپة، باجربوعة، بازوايه، طوپراق زياره، خزنه تپه، مناره شبك، تبراوه، علي رش، طو بزاوه، گور غريبان،

كبرلي، تيز خراب، يكيجه، بدنه، باسخره، شيخ أمير، بعويزه، الخ. ويسكن الشبك في قرى أخرى مع قوم يسمون «باجوان»، وهم من أهل السنّة.

لم يقطع الصراف في أصل الشبك فقال إن المظنون أنهم من عنصر كردي أو تركي. لكن الذي لا نزاع فيه هو أن الأتراك احتلوا شمالي العراق وسكنوا قرى الموصل في عهد السلطان طغرل بك السلجوقي الذي جاء إلى العراق مع عدد عظيم من الأتراك لإغاثة الخليفة القائم بأمر الله العباسي والقضاء على سلطان الدولة البويهية وعلى القائد الثائر البساسيري، وذلك سنة 1055م.

وقال الصراف إن «الشبك» مختلطون مع عشائر الباجوان والأكراد والتركمان والعرب، ولسانهم خليط من الكردية والعربية والفارسية والتركية، وهذه الأخيرة غالبة على لسانهم. ويتناول الصراف في كتابه بالتفصيل قرى الشبك وعباداتهم ومواسمهم ومراسمهم وشيوخهم من رجال الدين وطريقتهم الصوفية وأحوالهم المعاشية والاجتماعية وآدابهم. ويشير إلى كتاب المناقب «البويوروق» من كتب الشبك المقدسة، وهو كتاب باللغة التركية يحتوي على حوار في آداب الطريقة بين الشيخ صدر الدين وبين قطب العارفين الشيخ صفي الدين إسحاق الاردبيلي الزاهد مؤسس الطريقة الصفوية والمتوفى سنة 1329م، وله قبر يزار في اردبيل من بلاد كورة أذربيجان.

أدب التركمان

قال إبراهيم الداقوقي في كتابه «فنون الأدب الشعبي التركماني» (المطبوع في بغداد سنة 1962م) إن الأدب التركماني في العراق يمكن اعتباره فرعاً صغيراً من شجرة الأدب التركي الضخمة التي تمتدّ فروعها من منغوليا شرقاً حتى البحر المتوسط غرباً.

وقال إن عماد الدين نسيمي المتوفى سنة 1404م يعدّ مؤسس الأدب التركماني في العراق، فهو أول من استعمل اللهجة التركمانية التي هي خليط من لهجة الأناضول الشرقية واللهجة الآذرية في نظم الشعر. ونسبة هذا الشاعر إلى قرية نسيم من ضواحي بغداد القديمة. وكان شاعراً رقيقاً ومن غلاة المتصوفة من طبقة الحروفيين حتى اتهمه علماء حلب بالزندقة واصدروا فتوى بقتله، فنفذ فيه الحكم وسلخ جلده في تلك المدينة.

ازدهر الأدب التركماني في العراق، على ما قال الداقوقي، في القرن السادس عشر الميلادي، فظهر فضولي

(1498 - 1558) مجدّد الشعر التركي ومبدعه، ذلك الشاعر الذي عدّه عبد الحق حامد الشاعر الأعظم.

ومن شعراء التركمان الذين نبغوا في القرن التاسع عشر غريبي الاربللي، وعبد الله صافي (1828 - 1898) الذي ألف معجماً للغة التركمانية ووضع عدا ذلك مصنفات منها: أمثلة تركمانية، افترانامه، قسطاس مستقيم، ديوان شعر الخ. وأصدر الشاعر التركماني سيد محمد جواد (1892 - 1959) مجلة كوكب معارف في كركوك، ولم تدم طويلاً. ونشر نادي الاخاء التركماني في بغداد مجلة الإخاء (قاردا شلق) باللغتين العربية والتركمانية (1962).

ومن الشعراء الآخرين الذين يذكرهم الداقوقي آرزي قنبر الذي عاش في العراق في عهد الدويلات التركمانية خلال القرن السابع عشر، وقد نظم ملحمة تصف حياة الفلاحين في القرى[1]. ومنهم محمد نوروزي الذي توفي في كركوك في أواخر القرن الثامن عشر، وهو صاحب منظومة يوسف وزليخا، ودادال أوغلو المتوفى سنة 1865. ومن رواة الشعر كور عابش المتوفى في كركوك سنة 1911، وقنبر علي المتوفي: سنة 1906

---

(1) أخبرني العقيد عزيز قادر أن ازري قنبر لم يكن شاعراً، بل هو اسم ملحمة منظومة على لسان أزري قنبر شبيهة بقصائد قيس وليلى.

في بعض قرى داقوق، وخليل أحمد المتوفى سنة 1917 في بشير.

وزخر الأدب الشعبي التركماني القديم بالقصص التأريخية والغرامية والخرافية والدينية والتعليمية. وأكثرها مجهول المؤلف، وقد تناقلها أبناء الشعب عصراً بعد عصر كما تناقلوا الأغاني و «القوريات» والأمثال والأساطير والنوادر.

وأشادت دائرة المعارف الأدبية الصادرة في نيويورك سنة 1946 بذكر فضولي المتوفى في نحو سنة 1562، واسمه محمد بن سليمان البغدادي، وقد نظم الشعر بالتركية (باللهجة الآذربيجانية المستعملة على الغالب في بلاد إيران. وبالعربية والفارسية. وقالت إنه شاعر رقيق أصيل سمي «شاعر القلب»، وله ديوان شعر وقصة ليلى ومجنون.

أحمد هاشم

لا بدّ للباحث في الشعر التركي في العراق من ذكر أديب عصريّ كبير اشتهر صيته وإن يكن ينتسب إلى أسرة عربية معروفة هي الأسرة الآلوسية.

هذا الشاعر هو أحمد هاشم.

عراقي الأرومة، آلوسيّ المحتد، عاش في تركية منذ نعومة أظفاره ونظم الشعر بلغتها حتى عدّ من شعرائها الأفذاذ. وقدْ سمّاه وحيد الدين بهاء الدين صاحب «أعلام من الأدب التركي»: شاعر الطبيعة والرمزيّة وعدّه من الأدباء الذين يحتلون مكانة مرموقة في عصر النهضة إلى جانب محمد عاكف ورضا توفيق ويحيى كمال.

ولد أحمد هاشم بك في بغداد سنة1884، وكان أبوه محمد عارف حكمت الآلوسي (1855 - 1916) حفيد المفسّر أبي الثناء محمود شهاب الدين، من رجال الإدارة تولى قائممقامية راوندوز ومتصرفيّة لواء فزّان في طرابلس الغرب، ثم اعتزل

الأعمال وعاش في الأستانة وتوفي بها.

توفيت والدة شاعرنا ولم يتجاوز الثامنة من عمره فنشأ حسّاساً مرهف العاطفة. تنقل مع والده في البلدان العثمانية حتى جاء به إلى العاصمة التركية سنة 1896 ودرس فيها. وتخرج في مدرسة غلطة سراي سنة 1906، فالتحق بدائرة انحصار الدخان موظفاً. وانتمى إلى مدرسة الحقوق لكنه لم يكمل دروسها. وتولى التدريس في أزمير على أثر إعلان الدستور فانتهز الفرصة لتعلّم اللغة الفرنسية. وعاد إلى استانبول بعد سنتين وعيّن مترجماً بوزارة المالية.

ونشبت الحرب العظمى سنة 1914 فجند ضابطاً احتياطياً وشهد معارك جناق قلعة والأناضول. وأعلنت الهدنة فعمل أحمد هاشم مفتشاً بدائرة الديون العمومية، فموظفاً في البنك العثماني، فمدرساً بمعهد الفنون الجميلة والكلية الملكية والكلية العسكرية. وزار باريس سنة 1924 واتصل بمحافلها الأدبية. وكان عضواً بمجلس إدارة سكك حديد الأناضول. وتوفي في استانبول في 4 حزيران 1933.

مال أحمد هاشم إلى الشعر وهو لا يزال في مقعد الدراسة. غلب عليه شعور الوحدة فكان قلق النفس متغيّر المزاج كثير التشاؤم، تأثر في بادىء الأمر بعبد الحق حامد وجناب

شهاب الدين وتوفيق فكرت، ثم تبحّر في الأدب الفرنسي وتأثّر خطى بودلير وڤرلين وهنري دي رنييه ورامبو ومالارميه. ومال إلى المذهب الرمزي فقال: «لا ينبغي للشعر أن يكون مفهوماً كالنثر بل مشعوراً به... إن الشعر ككلام الأنبياء يجب أن يحتمل تفاسير مختلفة». وقد قال الناقد التركي فاخر عزّ: «إن مواضيع شعر أحمد هاشم تدور حول الفجر والشفق والمساء والليل والظلام والقمر والبحيرة والغدير والصحراء والورد والغراب والبلبل والأسى والحبّ الخائب والبلاد البعيدة المجهولة والموت... وقد ظلّ إلى آخر حياته متمسّكاً باللغة التركية القديمة والعروض. ولم يتأثر شعره بالحروب والثورات التي عاشها في حياته. وتأثر في أخريات أيامه بحركة تحرير اللغة التركية فترك المزيج العربي الفارسي القديم. ولو طال به الزمان لحلّق في الميدان».

وقال وحيد الدين بهاء الدين الذي ترجم طرفاً من شعره إلى العربية إنه تأثر بالأدب الفرنسي واستهواه جمال الطبيعة وملك لبّه الحنين إلى الوطن البعيد. ومع أنه كان من روّاد الشعر الحرّ والمذهب الرمزي فقد كان حريصاً على حسن التعبير وسلامة اللغة ومراعاة الذوق الأدبي، خلافاً لدعاة الرمزية الذين يتهاون أكثرهم في أمر اللغة وسلاسة التعبير. وامتاز شعره بسعة

الخيال ومعالجة القضايا الاجتماعية والالتزام بمبادىء الفكر والحرية والحقّ.

وذكر كامل الجادرجي في أوراقه انه تعرف على أحمد هاشم في استانبول سنة 1921 فسأله هل ينوي العودة إلى العراق؟. فأجاب: «هذا مستحيل. فإني كشجرة نبتت في البلاد الحارّة، منبع النور، فاقتلعها والدي وهي صغيرة وأتى بها إلى هذه البلاد. وقد نمت هذه الشجرة في غير المحيط الملائم لها فلم تألفه قطّ، ولكن لا يمكن قلعها الآن بعد أن كبرت وتخشّبت هنا لتغرس من جديد في محيط ابتعدت عنه كثيراً».

إن هذا الشاعر الذي لم يكد يرى بغداد حتى زايلها صغيراً ليطوّف في البلدان وليقيم على ضفاف البوسفور الفاتنة في مبهج طبيعتها ومحاسن سمائها ومائها، قد حنّ أبداً، في شعوره الباطن، إلى الوطن المجهول الذي جاء به إلى الحياة وغذّى طفولته الباكرة، فترجم ذلك الحنين شعراً يفيض باللوعة والحنان ويزخر بالقيم الروحية ويومىء بالرموز إلى سماء بعيدة مرصّعة بالنجوم.

نشر أحمد هاشم بواكير شعره في المجلات والصحف كالمجموعة الأدبية والكتاب المصّور وثروة الفنون والمساء والإقدام. وألف تصانيف نثرية وشعرية، منها: گول ساعتلري

(ساعات البحيرة، شعر 1921)، پيالة (1926)، غراب خانة لقلقان (مقالات 1928) بزه گوره (1928) فرانكفورت سياحتنامه سي (1933) سورلري (1933).

من الذين ذكروا أحمد هاشم ونقلوا بعض شعره إلى العربية الأديب اللبناني غنطوس الرامي (مجلة الأديب البيروتية، كانون الأول 1942)، فقال إن أحمد هاشم طلع على الأدب التركي الحديث بالرمزية ضارباً على وتر هنري دي رنييه، فكان تأثيره بليغاً. وقد نشأت معه وبعده حركة رمزية حلوة شاملة، على أن هاشماً ظلّ بعيداً عن أن يجارى، وبقي برفيع ثقافته وفريد أسلوبه ودقة إحساسه مستأثراً بأروع صفحات الأدب التركي الجديد. كانت باكورة أدبه مصبوغة بالصبغة الكلاسيكيّة، ولكن سرعان ما حوّل وجهه إلى أصفى ينابيع الرمزية وأعذبها...

يقول أحمد هاشم في مقطوعته «الساعة الأخيرة» (ترجمة غنطوس الرامي):

عند حلول الليل تشع المدن في الأفق،
تعصب الكآبة جبين الفرح دونما سبب.
تخفت الأصوات، ويضطجع الحلم في القلب،
وتعصف ريح الغضب هناك في الأعالي.

يسعى الطير إلى الدجنّة،
ويسري الليل بتؤدة فيضطرب وجه المياه المكفهرّ.
الأشجار تبدو في غفوة، وموسيقى القلب
تنقلب بميوعة من أعماق القلب، كاشفة
عن أسى واكتئاب،
ووجه الحياة يصفو صفاء السماء.
وينفذ سرب الذكريات إلى النفس المحتجبة
خلف ألف ستار.
والشباب الذاهب يبكي الغد الفاجع.
ويمتدّ جناح ساحر فوق الأشياء.
بينا يهبط، مع كآبة الشطّ،
ليل وداع في موكب نجوم».

إنّ هذه المقطوعة لتثير في النفس حزناً ساجياً جميلاً. إنها تذكرنا بجانب من شعر بودلير الفرنسيّ، تذكرنا بقصيدته «تأمّل» التي يقول فيها:

مهــلاً، رفيــق حيــاتــي، أيّهــا الألــم
مهــلاً ولا يــأخــذنــك الغيــظ والسّــأم
هــذا المســاء الــذي استعجلــت مقــدمــه
قــد جــاء تغشــى الــورى فـي إثـره الظُّلَـمُ

أنظـر إلـى مـوكـب الأعـوام مشـرفـة
مـن السمـاء كسـاهـا ثـوبـه العـدم
أنظـر إلـى راكـد الأمـواه قـد لمعـت
يطـلّ منهـا، شبيـهَ المـارد، العـدم
وانظر إلـى الشمس فـي آفـاقهـا هجعـت
كمثـل محتضـر قـد شفّـه السَّقَـم
واسمـع خطـى الليـل يمشـي هـادئـاً وَقُـراً
يجـرّ ذيـلاً مـن الأشبـاح تلتثـم

ويقول أحمد هاشم في مقطوعة أخرى عنوانها «السلّم»:

«ستصعدين هذا السلّم،
تجررين وراءك نثار أوراق بلون الشمس،
وتنظرين إلى السماء من خلال دموعك.
لقد اصفرّت المياه، واصفرّ وجهك أيضاً.
أنظري إلى الفلك المحمر: هوذا المساء يعود.
الورود الحانية على الأرض تقطر دماً.
هي لغة ساحرة تفعم القلب، لغة الأشياء.
انظري إلى الفلك المحمرّ: هو المساء يعود».

وفي قصيدة أخرى عنوانها «هذه المدينة» يحلم الشاعر بمدينة ممدودة في مطارحِ الحلم البكر. يغشاها المساء الأزرق.

ويسكب البحر عند قدميها هدأة النوم. فيها النساء جميلات نقيّات يعشقن الليل ويكسر الألم أهداب عيونهن... ويتساءل الشاعر: هذه المدينة، في أية بقعة تنطرح، وأي نهر يطوّقها؟. أهي حقيقة أم خيال، أم هي ملجأ الحلم الشارد؟. إنّه لا يدري حقاً، ولكنه يعلم أنه، والبحر الأزرق وهذا المساء والحبيبة الخيالية التي يخاطبها، مبعدون جميعاً عن تلك المدينة ذات الأخيلة الزرق ومحكوم عليهم بالنفي الأبدي إلى هذا المكان.

من شعر أحمد هاشم (مترجم عن الانكليزية):

ذكــرى

حديقة فارسية، سجّادة صلاة،

وبرْكة طافحة بالشراب اللاهب.

يا لها من ساعة شجية، ساعة المساء،

وما أبعد عينيها عن مرأى عينيّ!. والسماء خضراء، والأرض ذهبية،

والغصن لونه كالمرجان،

والطيور ساهمة في بحر الذكريات.

وفي هذا العالم الذابل العامر بالأشباح لا متعة سوى بهجة الذكريات.

شعراء وأدباء

عبد الله صافي

شاعر وأديب كركوكي الأصل، وكان أبوه الملا درويش محمد من رجال الدين. لعبد الله صافي ديوان شعر توجد نسخته المخطوطة الأصلية لدى عباس العزاوي كما ذكر في الجزء الثامن من «تأريخ العراق بين احتلالين». وله مؤلفات أخرى: أمثلة تركية، افترانامه (كتبها بعد أن وجهت إليه تهمة في استانبول ونشرها في ديوانه). ترجمة أخبار الدول وآثار الأول (في ثلاثة مجلدات) من تأليف المؤرخ الدمشقي أحمد بن يوسف القَرَماني المتوفى سنة1610 م، قسطاس مستقيم. توفي سنة1898.

هجري دَدَة

شاعر التركمان محمود هجري ابن الملا علي بن نظيري دده ابن قيصر، عرف باسم هجري دَدَة، ويمتّ بصلة قرابة إلى

رسول حاوي الماهوني الكركوكي صاحب كتاب دوحة الوزراء المتوفى سنة 1827.

ولد هجري دده في كركوك سنة 1881، وتوفي أبوه ولم يبلغ الرابعة من عمره. ونشأ في أسرته التي لها زعامة روحية بين الكاكائية الغلاة وتحتفظ بالتاج والخرقة الحرير والحزام وغيرها من الآثار التي يرجع عمرها إلى زمن السلطان سليمان القانوني، على ما ذكره عباس العزاوي في كتابه «الكاكائية في التاريخ» (1949).

قرض هجري دده الشعر باللغتين التركية والفارسية، نشر رباعياته التي بارى بها الخيام في جريدة «كركوك» الرسمية.

ومن مؤلفاته: ارشادات كائنات (1923) يادكار هجري (بالتركية والفارسية طبع سنة 1911) تأريخ كركوك، رباعيات، ترجيع بند، جانلي أثر، ترجمة كلستان سعدي إلى التركية، تحفة سليماني (بالفارسية 1935) الخ.

عيّن هجري دده مدرساً في المدرسة في كركوك قبيل الحرب العظمى الأولى، لكن المدرسة أغلقت عند نشوب الحرب، وكان بعد ذلك ملتزماً لكيل الحبوب فمعلماً بمدرسة القلعة. وعهد إليه سنة 1927 بإدارة جريدة «كركوك»، ثم عيّن مفتشاً صحيّاً في دائرة البلدية (1928).

وتوفي في مسقط رأسه في خريف 1952. وقد وفاه حقه وحيد الدين بهاء الدين في كتابه «من أدب التركمان» (1962)، فقال إنه كان في عصره شاعراً من الطراز الأول، وكان له صولات وجولات في مجالات التأريخ والفكر والثقافة العامة. وكان يتقن ثلاث لغات هي التركمانية والفارسية والكردية. وقد اتسم شعره بالقوة والرقة، واتشح بالاشراق والأصالة والجمال دون العمق... وامتاز بالمدح والهجاء وبعد ذلك بالوصف والغزل.

وذكره إبراهيم الداقوقي في كتابه «فنون الأدب الشعبي التركماني» (1962)، فقال:

«هجري دده... أعظم شعراء التركمان بعد فضولي البغدادي لأنه، وإن يكن تحت تأثير هذا الأدب، إلا أنه تمكن أن يؤسّس مدرسة قائمة بذاتها، تلك المدرسة التي وفقت بين أسس أدب الديوان وبين الواقعية الحديثة، حيث كسا آراءه كسوة قشيبة وعبّر عن لسان القوم (التركمان) بلهجة العصر. ويتسم شعره بجزالة اللفظ وسلاسة الاسلوب وقوة الحبكة، كما يتصف بالسمة الإنسانية وسمة الحب التي يتصف فيها الشعر الصوفي».

وخير من كتب عن الشاعر هجري دده عباس العزاوي الذي صادقه وأحبّه، قال:

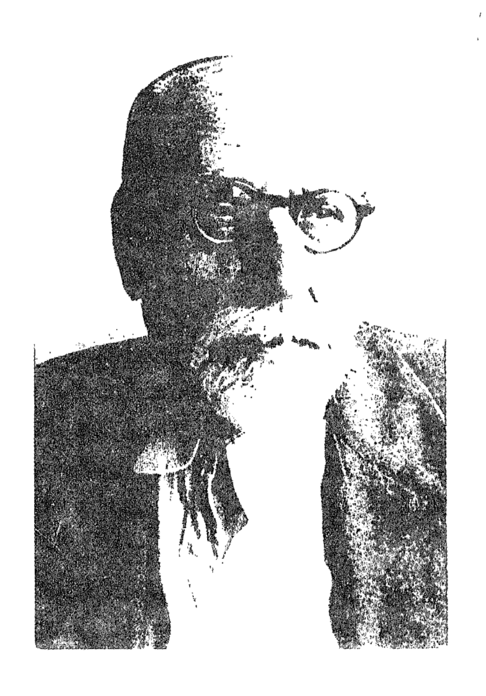
«وهجري دده أديب كامل ممتاز في شعره... وشعره مشهور في الفارسية والتركية... تغلب عليه مسحة تصوّف الغلاة أمثال الحلاج ونسيمي وفضل الله الحروفي وبكتاش ولي وابدال وويراني وأضرابهم. نراه يرمي إلى ما يرمون إليه، ونشاهد الوحدة والاتحاد والحلول والجذبة والوله باديات في رباعياته أو ترمز إليها، كما أن محفوظاته تفصح عن توغله في أمرها، وفيها البيان الكافي».

وقال العزاوي بعد ذلك: «هجري دده لا ينكر فضله ولا يبخس شعره، صديقي أودّ مجالسته وأعدّها من خير أيام الانتعاش. يحلو حديثه، طروب أديب، وفي معاشرته نشاط الحياة وقوة فيضها... ورباعياته (ارشادات كائنات) متأثرة بالأدب الفارسي والتركي ومشبعة بهما، لا من الوجهة الأدبية بل من ناحية الإبطان وأهله، وهو من رجاله البارزين اليوم ومن شعرائه العارفين. نرى أديبنا تقمّص ثوباً خيامياً في الانهماك بالخمرة وعدم المبالاة بالشرائع، داعياً إلى الاستقامة والصفاء دون التفات إلى المفروضات والعبادات، كأن هذه تنافي تلك، أو أن اصلاح الباطن لا يأتلف ومراعاة الظاهر...».

ومن شعر هجري ددة قصيدته «كركوك في التأريخ» ترجمها وحيد الدين بهاء الدين في كتابه «من أدب التركمان»، قال:

«كركوك هذه التي تعرّضت لآلاف البلايا،
كركوك هذه التي داهمتها الأوبئة والطاعون،
كركوك هذه التي ذاقت من الجفاء ألواناً،
كركوك هذه التي تقلّبت على أفراح وأتراح...»

ويمضي الشاعر في وصف مواكب الدهر في بلدة النفط فيذكر أشور والاسكندر والعباسيين والسلاجقة والعثمانيين من سليمان القانوني والسلطان مراد إلى نادر شاه وسائر الملوك والقادة والفاتحين الذين شهدت مرورهم كركوك.



خضر لطفي

خضر لطفي

الشاعر التركماني خضر لطفي بن سمين بن إسماعيل، ينتهي نسبه إلى الشيخ جلال الدين الرومي (1207 - 1273م) صاحب الطريقة المولوية ومؤلف «المثنوي»، وقد هاجر جدّه من قونية إلى كركوك في عهد السلطان مراد الرابع.

ولد خضر لطفي في كركوك سنة 1880 ودرس على رجال بلده وتعلّم العربية والتركية والفارسية، ومال إلى الأدب وألمّ بفنونه. ولم يكد يبلغ الخامسة عشرة من عمره حتى انتظم في سلك الجيش وخدم في مسقط رأسه وفي بغداد، وشهد في الحرب العظمى معارك القفقاس برتبة ملازم أول، ثم أقام في استانبول، وعاد إلى كركوك سنة 1924. وأدركته الوفاة بها في 23 حزيران 1959.

كان شاعراً متصوّفاً ذكره عباس العزاوي في كتابه «الكاكائية في التأريخ» (1949) ونعته بالفضل والكمال وقال: «سمعت أنه توفي قبل بضع سنوات». وجاء خضر لطفي إلى

بغداد وزار العزاوي وقال له: «كيف ذكرت موتي وأنا حيّ أرزق؟».

قال العزاوي: «يا للعجب! . ألا تزال حياً؟ . لم أرك منذ أعوام طويلة فرجّحت وفاتك، ولا بأس فقد أثنيت عليك بما أنت أهل له!».

ذكر هذا الشاعر وحيد الدين بهاء الدين في كتابه «من أدب التركمان» فقال إنه نشر مقطوعاته وخواطره وأبحاثه في الجرائد والمجلات في العراق وتركية، وقد عالج فيها مجريات الحياة المرهقة وشؤون الإنسان والسموّ بذاته إلى معارج المجد والسعادة وإيجاد علاقة طبيعية بين واقع الحياة القاسية وموقف المرء المتّسم بالصراع المستميت.

يقول خضر لطفي في بعض شعره:

«تعال انظر كيف فعل البؤس بالخلائق.
هذه أمة مظلومة تندب حظها مجتمعة.
لا، ليست الحكومة غير موجودة، لكن المساواة والعدل معدومان...».

إن تصوّف خضر لطفي قد حمله، كما ارتأى وحيد الدين بهاء الدين، على العناية بشؤون الناس كبيرهم وصغيرهم، فطرق مواضيع إنسانية كالمعرفة والرحمة والأمل والصحة والعقيدة

وفلسفة الخير والشر والوظيفة الاجتماعية الخ. وقد كان مرهف الحسّ يميل إلى الكآبة ويجنح إلى اليأس ويأنس إلى الشقاء، فقال:

«جنحت إلى الشعر، ولم يكن لي به عهد.
فكّرت محزوناً عميقاً ولم أنعم بشيء من الراحة.
صغت هواجسي وعواطفي شعراً ونثراً، حتى تعالت آهاتي تمزّق سكينة السماء.
لم يسأل أحد عن حالي ولم يسع إلى عوني،
فعبث، يا لطفي، ما تطلقه من تنهدات،
فلن يبقى غير صدى خافت...».

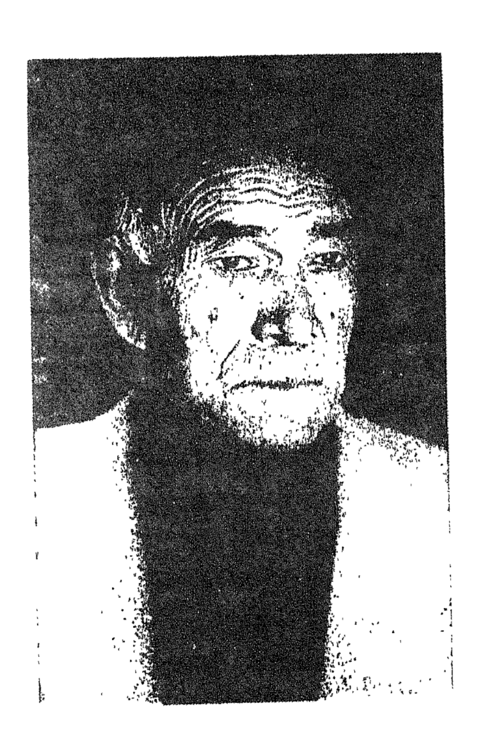
وقال:

«لا ترجُ خيراً من زمان يقصر عن ادراك فعلته المرء.
تنطوي الأعمار بلا رجوع، وما برح الشقاء يلمّ بنا.
حظنا أن لا يشع في آفاقنا ضياء وأن لا دواء لعللنا...».

ولخضر لطفي شعر كثير لم ينتظمه ديوان، ووضع مؤلفاً في فضولي البغدادي وآخر في تأريخ كركوك وهلم جراً.

ولعلّ ما يزخر به شعر خضر لطفي وأقرانه من شعراء التركمان في كركوك من كآبة وما يطغى عليه من الأنغام اليائسة الحزينة يرجع إلى انعزال هؤلاء الشعراء عن معين ثقافتهم التركية

القديمة وانزوائهم في بقعة نائية تقع وسط المجتمع العراقي والثقافة العربية. لقد كان العراق موطناً من مواطن الأدب التركي القديم في عهوده الناضرة الماضية، فلما انحسر المدّ التركي عن بلاد الرافدين بقيت كركوك واحة فكرية تركمانية، وكان ادباؤها في معزل عن معينهم مثلما كان شعراء المهجر العرب في الامريكيتين الشمالية والجنوبية. ثم شقّ كمال أتاتورك لتركية الحديثة طريقاً آخر بعيداً عن التيّارات الفكرية التقليدية واتجه ببلاده صوب أوربّة وحضارتها المادية واصطنع الحروف اللاتينية التي قطعت صلة الأتراك المعاصرين بفضولي وعهدي وباقي ونفعي ونديم وحتى نامق كمال وتوفيق فكرت وخالد ضياء، وكان أن بقي الأدب التركماني في العراق منطوياً على نفسه، يرتفد من منبع مردوم جفّ ماؤه وشحّ عطاؤه، فلا عجب أن اتّسم بالحزن واليأس والمرارة والتشبّث بأهداب الماضي السحيق.



محمد صادق

محمد صادق

الشاعر التركماني الحاج محمد صادق، قال إبراهيم الداقوقي صاحب «فنون الأدب الشعبي التركماني» إنه آخر من يمثل أدب الديوان (المدرسة التركية القديمة)، وقد جارى في النظم هجري دده، ولا يزال يختتم قصائده على عادة شعراء القرن السادس عشر بتضمينها اسمه في البيتين الأخيرين.

ولد محمد صادق في كركوك سنة 1886 لأب تركي وأم كركوكية، توفي أبوه وهو صغير فنشأ يتيماً. درس في المدارس الحكومية، ومال إلى قرض الشعر منذ الصبا.. ونشبت الحرب العظمى سنة 1914 فخاض غمارها جندياً في الجيش التركي، وانتسب إلى المدرسة الحربية في حلب وتخرج فيها ضابطاً. وقد حارب الانكليز في ساحة الكوت وجرح في المعارك.

عاد إلى مسقط رأسه بعد أن وضعت الحرب أوزارها، فامتهن التعليم وقضى فيه عشر سنين، ثم انصرف إلى قرض الشعر وآثر العزلة والانزواء، وقاسى شظف العيش حتى توفي في

جامع الشيخ حسام الدين في كركوك في أول تموز سنة 1967.

ترجمة حسين محمد في جريدة النور البغدادية (31 آب 1969) قال فيها: «ونظم صادق في أغراض كثيرة واشتهر بالغزل والوطنية والرثاء والالٰهيات. وفي حداثته أحب فتاة حباً عظيماً فلَم يدم هذا الحب طويلاً لأن الفتاة توفيت في صباها. ويقول فيها هذا الشعر الغزلي الرقيق...:

تمعّن في جيد حبيبتي كأنه مرآة مجلوّة،
تريك صوراً بديعة لم تخطر ببال إنسان.
أنفك الرقيق الشبيه بحرف الألف
جاء مطابقاً لجمالك الفتّان،
كأنه نصل مصنوع من سبيكة خالصة...
قد قسم تفاحة إلى قسمين.
من أراد رؤية النار والماء معاً،
فلينظر إلى وجه حبيبتي عندما تنزل قطرات العرق على خديه الورديّين.
عندما تضحكين بدلال، تتراكم خصلات شعرك السوداء المتراخية على وجهك الثلجي،
وفي ذلك الوقت يبدأ الليل والنهار بالظهور معاً».

كان محمد صادق ينظم باللغات التركية والعربية والكردية

والفارسية وفد يمزج بين هذه اللغات في قصيدة «ملمعة» واحدة. ونظم عدداً كبيراً من الرباعيات الجناسية المعروفة بـ «الخويرات». وشعره كما هو واضح تقليديّ يردّد المعاني المصنوعة القديمة. وروي من شعره العربي بيتان في فتاة اسمها شمس:

قامت تظلّلني من الشمس
بنت أعزّ عليّ من نفسي
قامت تظلّلني، ومن عجب
شمس تظلّلني من الشمس!

ومن مؤلفاته: يا دكار سفر برّلك (خواطر الحرب العظمى) (1925) تأملاتي (1956) گلستان كربلاء (1925) عواطفي الجياشة (شعر تركي، 1964). وله آثار مخطوطة منها: مراثٍ، قصائد في الغزل والربيع، الخ.

وكان محمد صادق يزور بغداد بين حين وآخر ويلتقي بالرصافي والزهاوي وغيرهما.

وقد أدركته حرفة الأدب وهدّت قواه الوحدة والشقاء، فقال: «إنني، عندما تخلو حياتي من مصاعب العيش وآلامه، يفقد شعري طابع الشعور. وفي نظري ان الشاعر الذي لم يذق المرارة والألم وضنك العيش ليس بشاعر حقيقي».

ورثى محمد صادق لحال بلده كركوك فقال:

«إيه، كركوك، جار عليك الزمن فأحالك بركاناً متضرّماً.. حينما أشاهد بغمّ نهرك الجافّ تتساقط من عيني الدموع. وهي تستحيل، يا كركوك، نهيرات من الدماء.

«وإذا كانت ديارك الرائعة تسيل كالماء ذهباً، فعلام بات أهلك مشردين يا كركوك؟.

«لِمَ في ترابك غمّ، وفي مائك سمّ وفي رياضك حسرة؟...».

(من ترجمة وحيد الدين بهاء الدين).

وتطلع محمد صادق إلى بغداد وأكبر عظمتها وخلودها فقال:

يتجلّى تاريخ بغداد في نهرها الخالد دجلة
الذي استحالت مياهه مرآة تحكي صروف الدهر وحادثات الأيام...
كانت بغداد موطن الحضارات،
فاستعادت اليوم مجدها الغابر بثورة الأحرار، فأصبحت جنة وارفة الظلال.

(من ترجمة إبراهيم الداقوقي).

أحمد زيدان

من أشهر المغنّين العراقيين أحمد بن حمّادي بن زيدان البياتي ولد في بغداد سنة 1832 وتوفي بها في 12 أيار 1912. أخذ الغناء عن أستاذ المغنين في عصره رحمة الله بن سلطان آغا بن خليل الكردي المعروف باسم شلتاغ (المتوفى سنة 1871) وأحمد النيّار وغيرهما من مشاهير المغنين وقرّاء المقام.

ترجمه الشيخ جلال الحنفي في كتابه «المغنون البغداديون» قال فيها إنه كان من النوابغ الذين بعثوا في فنّ الغناء العراقي روحاً وحيوية وأوسعوه تجديداً وتنظيماً. وكان مدرسة فنية قائمة بذاتها تخرّج عليه جمهرة كبيرة من المغنين المعروفين. وكان يمجد على المآذن ويقرأ الأذكار والمواليد. وقد ترك آثاراً فنية غذّى بها المقامات العراقية وحفظها عنه تلامذته الكثيرون فردّدوها وخلدوها.

كان أحمد زيدان مؤذناً في جامع منوّرة خاتون وقارىء الأذكار القادرية، وسجّل بصوته بعض الاسطوانات.

أعلام السياسة والجيش

اللواء عزت باشا الكركوكي

عزّت باشا بن الحاج زينل بك بن علي بك آل صاري كهية، ولد في كركوك سنة 1870 وتخرج في المدرسة الحربية في استانبول سنة 1888. تدرّج في المناصب العسكرية العثمانية حتى رفّع إلى رتبة أمير لواء (1905) وعيّن قائداً على الحدود التركية ـ الإيرانية، فمتصرفاً للواء كركوك. وكان بعد ذلك قائداً للفرقة الثامنة والثلاثين في البصرة، وتقلّد منصب الوالي بالوكالة (1913). وأحيل على التقاعد سنة 1914، لكنه أعيد إلى الخدمة في الحرب العظمى بصفة أمير لواء احتياطي.

ألفت لجنة لوضع قانون الانتخاب برئاسة السيد طالب النقيب، وانتخب عزت باشا نائباً لرئيسها (آب 1920)، وقد فرغت اللجنة من مهمتها في تشرين الثاني 1920.

عيّن وزيراً للمعارف والصحة في حكومة النقيب الوقتية في 25 تشرين الأول 1920، فوزيراً للمواصلات والأشغال (29

كانون الثاني 1921). واحتفظ بمنصبه في الوزارة النقيبيّة الثانية (10 أيلول 1921) حتى استقال في أول نيسان 1922.

وقد اقترن بكريمة محمد فاضل باشا الداغستاني. وتوفي ببغداد في 20 تشرين الأول 1932.

يروى عن عزت باشا أنه قال حين أصبح وزيراً سنة 1920:
«إنني في كل الوظائف التي توليتها قبلاً كنت آمراً مطلقاً. ولكن بعد أن صرت وزيراً هنا صار أمري لا يتعدّى حدود هذا الپاراڤان (الحاجز)».

أمير اللواء فتاح باشا

ذكرت أمير اللواء فتاح باشا وولديه سليمان بك ونوري بك في كتابي «أعلام الكرد» الصادر سنة 1991 وكنت اظن أنهم من الأكراد، وقد قيل لي بعد ذلك أن الأسرة تركمانية لا تركية.

قال عبد الكريم الأزري في كتابه «مشكلة الحكم في العراق» إنه التقى بنوري فتاح في عمان سنة 1975، وقد جاءها من بيروت فراراً من الحرب الأهلية التي اندلعت نارها في لبنان. وقد قال نوري فتاح للأزري إنه تجاوز الثمانين من عمره، وأصل أسرته من قرية تسعين القريبة من كركوك، وأهلها من غلاة الشيعة العلويين. وكان جده يعمل في كركوك وله معرفة بمتصرفها، وقد رأى أن يدخل ولده فتاح في المدرسة الرشدية العسكرية. ونصحه المتصرف أن يعتنق المذهب السني الحنفي لامكان قبول ابنه في المدرسة، ففعل. ودرس فتاح في المدرسة الرشدية العسكرية في كركوك، ثم أرسل إلى استانبول فأتم دراسته العسكرية فيها وتخرج ضابطاً.

ولد فتاح باشا بسنة 1861، وتقدم في الجيش التركي حتى

نال رتبة أمير لواء، وكان مديراً لمعامل النسيج العسكري في بغداد، وأحيل على التقاعد قبيل الحرب العالمية سنة 1914. وعين على أثر تأليف الحكومة العراقية متصرفاً للواء كركوك (1921) فشغل منصبه إلى سنة 1924. ثم أسس مع ابنه نوري معملاً لنسج الصوف في الكاظمية سنة 1926، فكان المعمل في مقدمة المشاريع الصناعية الحديثة في العراق. وتوفي فتاح باشا في بغداد في 8 كانون الثاني 1936.

ولد ابنه سليمان بك سنة 1891 ودرس في المدرسة الحربية في استانبول وخدم ضابطاً في الجيش التركي. ثم جاء إلى بغداد والتحق بالجيش العراقي سنة 1921 ومنح رتبة رئيس (نقيب). وعين مرافقاً لوزير الدفاع فمعاون آمر المدرسة العسكرية. وأوفد للاشتراك في دورة عسكرية في الهند، ورفع سنة 1928 إلى رتبة مقدم. وكان بعد ذلك نائباً عن كركوك (1930) وأعيد انتخابه سنة 1934، فنائب اربيل (1934)، فنائب كركوك مرة أخرى سنة 1935 و1943 و1947. وتوفي في لندن في حزيران 1960.

أما نوري فتاح فولد سنة 1893. وتخرج في المدرسة العسكرية فكان ضابطاً في الجيش التركي. وعاد إلى العراق بعد الحرب العظمى فاشترك في الحركة الوطنية ونفي إلى جزيرة هنجام في آب 1920.

قام مع أبيه بتأسيس معمل النسيج في الكاظمية وتولى ادارته إلى حين تأميمه سنة 1964. وكان رئيس الوفد العراقي إلى مؤتمر التجارة الدولي المنعقد في راي من أعمال نيويورك في تشرين الأول 1944.

أمضى في بيروت سنواته الآخيرة بعد تأميم معمله، وانتقل إلى عمان على أثر نشوب الحرب الأهلية في لبنان، وتوفي في أيار 1976.

عمر نظمي

عمر نظمي بن حسن صفوت بن الملاّ محمد افندي الونداوي، ولد في كفري سنة 1891، ودرس الحقوق في بغداد فتخرّج سنة 1913 وعيّن حاكماً في محكمة خانقين فعضو محكمة بداءة بعقوبا (1914).

ونشبت الحرب العظمى فالتحق بالجيش التركي وأدخل في مدرسة ضباط الاحتياط. ثم عين مدعياً عاماً لديوان الحرب العسكري ببغداد، فلما احتلتها الجيوش البريطانية سنة 1917، انسحب مع الجيش التركي إلى الموصل حيث تقلد نفس وظيفته. ونقل مدعياً عاماً لمحكمة رأس العين فقضى في منصبه أشهراً ثم استقال وعاد إلى العراق.

انضمّ إلى السلك القضائي فعيّن حاكماً في محكمة بداءة كركوك (28 أيار 1921) فحاكماً منفرداً في أربيل (تشرين الثاني 1923)، ثم أعيد حاكماً في كركوك (1924). ونقل نائب رئيس المحاكم المدنية في الموصل في آواخر سنة 1924، فرئيس محكمة بداءة الحلة (1925) فديالىٰ (تموز 1925) فرئيس

المحكمة الكبرى في كركوك (أيلول 1926).

ونقل إلى سلك الإدارة متصرفاً للواء كركوك (9 نيسان 1927) فالكوت (8 نيسان 1930) فالبصرة (نيسان 1931) فمفتشاً ادارياً (أول تموز 1931) فمتصرف لواء الموصل (17 أيار 1934) فمدير الواردات العام (16 أيلول 1937).

وعهد إليه بوزارة الاقتصاد والمواصلات (25 كانون الأول 1938) إلى أول آب 1939، وعيّن عضواً بمجلس الأعيان (26 نيسان 1939). ثم أصبح وزيراً للمواصلات والأشغال ووكيل وزير الاقتصاد (أول آب 1939) فوزير الداخلية (20 أيلول 1939)، وأضيفت إليه وكالة وزارة العدلية (22 شباط 1940). وكان بعد ذلك وزير المواصلات والاشغال31 آذار 1940 ـ 31 كانون الثاني 1941)، وتولّى أيضاً وكالة وزارة العدلية من 25 إلى 28 كانون الثاني 1941. ودخل في وزارة طٰه الهاشمي وزيراً للداخلية ووكيل وزير العدلية (1 شباط 1941 ـ 1 نيسان 1941). وعاد وزيراً للداخلية مرة أخرى في الوزارة السعيدية الثامنة (25 كانون الأول 1943 ـ 3 حزيران 1944) ثم تولى وزارة العدلية من 23 شباط 1946 إلى 31 أيار 1946. وأعيد تعيينه عضواً بمجلس الأعيان (آذار 1946). ثم كان وزيراً للعدلية (21 تشرين الثاني 1946 ـ 29 آذار 1947) وثم من 29 كانون الثاني 1948 حتى استقال في 4 آذار 1948. وأصبح وزيراً للداخلية (20 تشرين

الأول 1948) إلى 6 كانون الثاني 1949، ونائب رئيس الوزراء (17 آذار 1949) ووكيل وزير الداخليه (17 أيلول 1949)، فوزير الداخلية ووكيل وزير الدفاع (10 كانون الأول 1949 ـ 5 شباط 1950).

وعيّن بعد ذلك وزير دولة (25 كانون الأول 1950) فوزير الداخلية (5 شباط 1951) إلى 10 تموز 1952. وقد انتهت مدة عينيته في 27 شباط 1954، فجدّد تعيينه عيناً (5 كانون الأول 1954 إلى ثورة 14 تموز 1958. وأقام بعد الثورة في لبنان.

وقال فيه خالد الدرّة في مجلة الوادي (15 آذار 1947): «والسيد عمر طيب القلب ناصع السريرة يودّ لو يكون الناس أخياراً، متعصب لعراقيته محبّ لبني وطنه معتّز بكرامته. فقه دراسته القانونية التي أتاحت له أن يكون وزيراًللعدلية لأكثر من مرة.

... وهو كبير الجثة بالرغم من قصر قامته، ممتلىء الجسم منتفخ الوجه، تكاد شفتاه الغليظتان تتحركان من غير ارادته، أسمر اللون، كبير الأنف».

توفي عمر نظمي في لبنان في أواخر تموز 1978. وعمر نظمي طيّب السّريرة، هادىء الطبع، لطيف المعشر. كنّا رهطاً من الشعراء في جلسة أدبية بمنزل علي الشرقي نتطارح الشعر،

وإذا بعمر نظمي يحضر على غير موعد ويجلس بيننا مستمعاً لا ينبس ببنت شفة.

وقرأ كمال عثمان قصيدة الدكتور عبد الرزاق محيي الدين في معارضة «ليل الصبّ»، فلما بلغ قوله:

يـــا سيّـــدتـــي، وعلـــى والأعتـــاب
محبّـــــكِ طـــــال تـــــــردّده
ضجّـــت حلقـــات البـــاب لـــه
وأرنّ القفـــــل ومـــــوصـــــده

أطلق عمر نظمي ضحكة عريضة وقال: نعم، نعم. لقد كان في دارنا القديمة قفل ضخم من أقفال العهد السّالف يرنّ ويقلقل كلّما دار فيه المفتاح!.

وأثار هذا التعليق الطريف مرح الحاضرين وضحكهم.

يوسف عز الدين إبراهيم

ولد يوسف عز الدين ببغداد في 14 أيلول 1891، وكان والده إبراهيم باشا كركوكيّ الأصل وقد تنقل في وظائف الدولة العثمانية، وأسّس مطبعة في بغداد سنة 1891 باسم مطبعة دار السلام، وكان مديراً للأملاك المدورة . توفي في حزيران 1926 عن نحو سبعين عاماً.

خدم يوسف عز الدين في الجيش التركي. وعاد إلى العراق يحمل رتبة رئيس.

وتوظف في دائرة المعارف على أثر تأليفها بعد الاحتلال البريطاني وعيّن سكرتيراً لناظرها الميجر بومان في أول تشرين الأول 1918. ثم أصبح مديراً لمعارف بغداد (11 آذار 1923)، ودرس في نفس الوقت في مدرسة الحقوق ونال شهادتها سنة 1925.

نقلت خدماته إلى وزارة المالية فعيّن مفتشاً مالياً (تشرين الأول 1925) فمعاون مدير المالية العام (15 حزيران 1930)

فمدير القسم العام بالوزارة (9 تشرين الأول 1933). ونقل مديراً عاماً للأملاك والأراضي الأميرية (حزيران 1934) فمدير المحاسبات العام (حزيران 1935)، وأعيد مديراً عاماً للأملاك والأراضي الأميرية في تشرين الأول 1935.

وتقلد وزارة المعارف في وزارة حكمت سليمان (29 تشرين الأول 1936) حتى استقال في 24 حزيران 1937. وانتخب آنذاك نائباً عن كركوك (شباط 1937). وعيّن بعد ذلك مديراً عاماً لانحصار التبغ (حزيران 1943) حتى أحيل على التقاعد في أيار 1946.

ويوسف عز الدين ـ كما وصفه أحمد حسن الزيّات ـ متّئد اللسان، حصين الصدر، سريع الفطنة، يتبسّط في هزل الكلام ويتحوّط في جدّه، ولا ينفك لاخوانه موضع السرّ ومرجع المشورة.

وقد آثر العزلة والانزواء بعد تركه الوظيفة وانصرف إلى إدارة شؤونه الخاصة. وسافر سنة 1969 إلى الولايات المتحدة الاميركية وأقام فيها حتى أدركه الحمام بها في تشرين الثاني 1975.

كان يوسف عز الدين ظريفاً لطيف الدعابة. وقد أثر عنه قوله مازحاً: إذا تخاصمت سمكتان في نهر دجلة فالانكليز وراء ذلك الخصام. وكان وثيق الصلة بـ«جماعة الأهالي» كامل الجادرجي ومحمد حديد وغيرهما.

جمال عمر نظمي

ابن عمر نظمي الونداوي نائب رئيس الوزراء، ولد جمال في بغداد في 12 أيلول 1914. وأتمّ دروسه في الجامعة الأميركية ببيروت فحصل على شهادة بكالوريوس فنون في العلوم السياسية (1937).

ثم درس بعد ذلك في كلية الحقوق ببغداد وتخرج فيها سنة 1956. عاد إلى بغداد فوظف معاون سكرتير مجلس الوزراء (13 كانون الأول 1937). ونقل إلى الإدارة فكان قائممقام قضاء الخالص (1940) فالمحمودية (1941) فالكاظمية (نيسان 1943). وقد أوفد إلى إنكلترة في السنة التالية لمتابعة دراسته العالية في العلوم السياسية والإدارية. وعاد إلى بغداد فعيّن مميزاً لدعاوى العشائر في وزارة الداخلية (تشرين الثاني 1944) فقائممقام المسيّب (1946) فمعاون متصرف أربيل (حزيران 1946). وعيّن متصرفاً للواء أربيل (كانون الثاني 1947) فديالىٰ (كانون الثاني 1948) فالبصرة (حزيران 1949 ـ 1953).

وانتخب نائباً عن رانية (كانون الثاني 1953) وجدد انتخابه

في حزيران 1954 وأيلول 1954 إلى سنة 1958. وعيّن وزيراً للزراعة من 20 حزيران 1957 إلى 15 كانون الأول 1957 في وزارة علي جودت الأيوبي الثالثة.

وقد عيّن وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية في 6 أيلول 1965 في وزارة عميد الجوّ الركن عارف عبد الرزاق، لكنّه لم يتسلّم مهامّ منصبه. ثم عيّن سفيراً في ديوان وزارة الخارجية (تشرين الثاني 1965) فسفيراً للعراق في برن عاصمة سويسرة من حزيران 1966 إلى تموز 1967.

وتوفي ببغداد في 18 تشرين الثاني 1967.

كان جمال عمر نظمي موظفاً إدارياً حازماً ورجلاً [illegible] كثير المطالعة، وله مكتبة خاصة كبيرة.

صالح باشا النفطجي

من سراة كركوك ينتمي إلى أسرة عرفت بآل النفطجي. وقد عيّن صالح باشا متصرفاً للواء الحلة في العهد الحميدي، في زمن الوالي مصطفى عاصم باشا، ثم كان متصرفاً للسليمانية سنة 1893 ـ 1894.

ولما أعلن الدستور العثماني انتخب نائباً عن كركوك في مجلس المبعوثين في كانون الأول 1908. وناب بعد ذلك عن كركوك في المجلس التأسيسي العراقي سنة 1924. وتوفي سنة 1927.

ذكر عبد المنعم الغلامي في كتابه «الأنساب والأسر» أن أسرة النفطجي تنتسب إلى قبيلة زنگنة. وهي من العشائر الكردية المعروفة التي تسكن المنطقة الواقعة بين كفري والسليمانية، ذكرها عباس العزاوي في الجزء الثاني من كتابه «عشائر العراق» وقال إنه يزعم أن أصلهم من بني أسد، لكنه لم يجد ما يؤيد هذا الزعم.

وأخبرني العقيد عزيز قادر أن آل النفطجي لا علاقة لهم بتاتاً بعشيرة زنگنه. وكانت الأسرة تحكم كركوك في العهد العثماني، وكان آخر متسلم (متصرف) منها عبد الله بك والد صالح باشا.

وخلف صالح باشا في النيابة عن كركوك في مجلس المبعوثين ولده ناظم بك الذي انتخب نائباً سنة 1914. ولد ناظم بك في كركوك سنة 1879. وقد قام عند البحث في قضية الموصل بعد الحرب العظمى يبثّ الدعاية للأتراك، لكنه خاف الاعتقال ومضى إلى تركية في آذار 1923. وقد عاد إلى كركوك بعد ذلك وأقام فيها إلى نهاية الخمسينات، ثم غادرها إلى استانبول حيث أدركته الوفاة.

وعرف من آل النفطجي أيضاً حسين بك بن حسن بك، وقد انتخب نائباً عن كركوك في شباط 1937 وكانون الأول 1937. وتوفي سنة 1942.

وانتخب إبراهيم النفطجي نائباً عن كركوك في كانون الثاني 1953، وأعيد انتخابه في أيلول 1954 وأيار 1958. وقد توفي في استانبول في آب 1964.

عبد الله صافي اليعقوبي

عبد الله صافي بن عمر بن أحمد اليعقوبي، من عائلة كركوكية معروفة. ولد في كركوك سنة 1877 ودرس على أساتذة خصوصيين. وقد عيّن كاتباً في محكمة بداءة كركوك (1896) فحاكماً بها (1904) فعضواً بمجلس إدارة اللواء (1908).

وانتخب سنة 1913 نائباً عن كركوك في مجلس المبعوثين، وجدد انتخابه سنة 1914 حتى الهدنة. ومضى إلى الحرب في جنوب العراق على رأس المجاهدين من أبناء بلده سنة 1915. وعيّن عضواً بمجلس الأعيان العراقي في تموز 1925، وجدد تعيينه إلى وفاته في بغداد في 4 شباط 1939.

أخوه: عبد المجيد بن عمر بن أحمد اليعقوبي، ولد في كركوك سنة 1883، وعيّن رئيساً لبلديتها في 15 تشرين الثاني 1918، فمتصرفاً للواء كركوك (أيار 1924). ونقل متصرفاً للواء أربيل (نيسان 1927) فمدير النفوس العام (نيسان 1930) فمدير النفوس والتجنيد العام (تشرين الأول 1930) فمتصرف لواء

ديالىٰ (آذار 1931) فمفتشاً إدارياً (تشرين الثاني 1931 إلى شباط 1936.

وأعيد إلى الخدمة متصرفاً للواء السليمانية (تشرين الأول 1937) فالكوت (شباط 1939) إلى أيار 1939.

وتولّى متصرفية لواء الموصل في أيار 1942 حتى اعتزل الخدمة في شباط 1944.

وقد توفي في لندن في 30 تشرين الأول 1962.

أخوه: مصطفى مظهر بن عمر بن أحمد اليعقوبي، ولد في كركوك سنة 1890، ودرس فيها فأتقن التركية والعربية. وعيّن كاتباً في محكمة قضاء رانية (1910) فكاتباً في دائرة تحرير لواء كركوك (1915). وأصدر في شباط 1916 مجلة باللغة التركية باسم «كوكب معارف»، وقد ظهر منها أربعة أعداد. ثم عيّن وكيل مدير لناحية شوان (1917) فنائب عضو بمحكمة بداءة كركوك (1917) حتى الاحتلال البريطاني سنة 1918.

وقد عيّن بعد تأليف الحكومة العراقية مديراً لناحية طاووق في لواء كركوك (1923) فقائممقام جمجمال (1924 ـ 1925).

وانتخب نائباً عن كركوك في أيار 1928 وتشرين الثاني 1930. ثم عاد إلى سلك الإدارة فكان قائممقاماً في قضاء كيل (تموز 1933) فجمجمال (كانون الثاني 1934) فكفري (نيسان

1935) فالعمادية (ايلول 1935) فمندلي (آذار 1936) فخانقين (تموز 1937) فتلّعفر فاربيل (كانون الأول 1938) فبدرة (آذار 1939) فجمجمال (حزيران 1939) فالشيخان (تموز 1940) فزاخو (شباط 1941). ورفّع متصرفاً للواء اربيل (حزيران 1941) فالكوت (تشرين الأول 1943) فديالىٰ (آب 1944) فالموصل (أيلول 1946). ونقل مفتشاً إدارياً (آذار 1948) فمتصرفاً للواء ديالىٰ : (حزيران 1951) فأربيل (آب 1952). وقد أحيل على التقاعد في تموز 1953.

توفي بعد سنة 1974.

وعرف أيضاً من آل اليعقوبي أحمد بن عبد المجيد اليعقوبي، ولد سنة 1907وتوفي في كركوك في تشرين الثاني 1957. انتخب نائباً عن كركوك في كانون الأول 1937. وبعد ذلك في حزيران 1948.

وكامل بن مصطفى اليعقوبي، انتخب نائباً عن كركوك في آذار1947، وأعيد انتخابه في كانون الثاني 1953 وحزيران 1954 وأيلول 1954. وتوفي سنة 1965.

والدكتور نجيب اليعقوبي، ولد سنة 1912، ودرس في كلية الطب ببغداد وتخرّج طبيباً (1937). واختصّ بالجراحة، وكان طبيباً في المستشفى التعليمي فاستاذاً في كلية الطب

(1948). وانتخب نائباً عن كركوك في نيسان 1958 حتى حلّ المجلس في ثورة تموز من تلك السنة. وقد عاد استاذاً في الكلية الطبية وكان مديراً للمستشفى الجمهوري. توفي ببغداد في آذار 1980.

ونجيب هو ابن عبد المجيد اليعقوبي.



محمد علي قيردار

محمد علي قيردار

محمد علي بن مصطفى بن محمد قيردار ينتمي إلى أسرة معروفة في كركوك، وقد تولّىٰ أبوه مصطفى رئاسة بلديتها.

انتخب محمد علي نائباً عن كركوك في مجلس المبعوثين العثماني سنة 1908 على أثر إعلان الدستور، وجدّد انتخابه حتى الهدنة (1918). ولمّا نشبت الحرب العامّة مضى إلى ساحة القتال في جنوبيّ العراق سنة 1915 شدّاً لأزر الجيش التركي.

ثم انتخب نائباً عن لواء كركوك في مجلس النواب العراقي سنة 1928، وجدّد انتخابه سنة 1930 و1933 و1934، حتى أدركته الوفاة في 22 كانون الأول 1934.

أخوه: محمد جميل بن مصطفى قيردار ولد سنة 1868، وتوفي في كركوك في 25 أيلول 1953. انتخب نائباً عن كركوك سنة 1939 و1943.

أمين قيردار

أمين بن محمد جميل بن مصطفى قيردار ولد في كركوك سنة 1900 وحصل على دراسته الاعدادية في استانبول. ثم التحق بكلية الحقوق في بغداد ونال اجازتها ومارس المحاماة. وعيّن مديراً لناحية مركز كركوك في حزيران 1935، وتدرج في السلك الإداري حتى أصبح قائممقاماً لقضاء داقوق وكفري ومركز لواء السليمانية (1944) فمركز لواء الموصل (1946).

وانتخب نائباً عن كركوك سنة 1947، ثم عيّن رئيساً لتسوية حقوق الأراضي (نيسان 1949). وجدّد انتخابه نائباً عن كركوك سنة 1953 وحزيران 1954 وأيلول 1954 - 1958 . وتوفي في 31 كانون الأول 1958 في مسقط رأسه.

وكان ولده نذير أمين قيردار نائباً عن كركوك في أيار 1958.



علي باشا الدوغراقچي

علي الطوغرامجي

علي باشا بن محمود آغا بن عبد الله آغا الطّوغرامجي، ولد في أربيل سنة 1878. وكان على العهد العثماني عضواً بمحكمة التمييز ورئيساً لبلدية أربيل.

وانتخب نائباً عن أربيل في مجلس النواب سنة 1930، وجدد انتخابه سنة 1933 و1934 و1935. ثم عيّن عضواً في مجلس الأعيان (19 تشرين الأول (اكتوبر) 1937 إلى 17 تشرين الأول (أكتوبر) 1945).

توفي في بغداد في 8 نيسان (ابريل) 1948 ونقل جثمانه إلى اربيل فدفن فيها.

وقد اقترن بكبرى بنات محمد علي قيردار واسمها عصمت، وكان له في داره ببغداد ديوان حافل يحضره رجال السياسة والأدب والفضل وشيوخ العشائر.

محمد رفيق

محمد رفيق الحاج أمين خادم السّجادة النبوية من علماء كركوك، ينتمي إلى أسرة كركوكية معروفة تنتسب إلى أبان ابن الخليفة عثمان بن عفّان ـ كما ذكر ذلك عبد المنعم الغلامي في كتابه «الأنساب والأسر»، والسجادة الشريفة المقصودة هي التي أهداها الرسول الأعظم إلى عثمان بالمدينة المنوّرة فانتقلت إلى سلالته.

ولد محمد رفيق في كويسنجق سنة 1869 ودرس العلوم الدينية على علي حكمت قاضي كركوك وغيره من العلماء. وقد عيّن عضواً إضافياً في محكمة كركوك على العهد العثماني حتى احتلال البلدة. وانتخب نائباً عن كركوك سنة 1925 - 1928.

كان ينظم الشعر بالعربية والتركية والكردية والفارسية، وتوفي سنة 1936.

نشأت إبراهيم

ولد في ماردين سنة 1864، ووظّف في دائرة البريد والبرق بالموصل سنة 1883. وتنقل في دوائر البريد في كركوك (1886) والسليمانية (1886) والموصل ثانية (1888) والبصرة (1890). وعيّن مديراً للبريد في الكوت (1891) فأربيل (1892) فكركوك (1895) فبغداد (1907). ونقل مفتشاً للبريد والبرق في بغداد (1909) فمديراً للبريد والبرق في ولاية وان (1910 - 1914). وانتقل بعد ذلك مديراً أو مفتشاً في ولايات تركية مختلفة.

عاد إلى الخدمة في دائرة البريد والبرق العراقية في كانون الأول 1918، وعيّن مديراً للبريد في بغداد (تشرين الثاني 1920). وكان بعد ذلك نائباً عن كركوك في مجلس النواب العراقي (تموز 1925 ـ كانون الثاني 1928). وانتخب نائباً ثانياً لرئيس المجلس من 9 كانون الأول 1925 إلى أول تشرين الثاني 1926.

وقد توفي قبل سنة 1934.

اللواء خليل زكي إبراهيم

من أمراء الجيش العراقي خليل زكي بن إبراهيم بن جمعة آغا ولد في كركوك سنة 1886، ودرس في المدرسة العسكرية في بغداد واستانبول وتخرّج سنة 1906. وقد خدم في الجيش التركي وحارب في صفوفه، وعاد إلى العراق في أذار 1921. وعند تأسيس الجيش الوطني العراقي انتمى إليه خليل زكي في نيسان 1921 برتبة مقدم وعيّن مديراً للحركات في وزارة الدفاع، فآمراً للواء الموصل (حزيران 1924) ورفّع إلى رتبة زعيم (1928) فلواء (1933). واختير وهو يحمل رتبة عقيد آمراً للحملة العسكرية لتعقيب الشيخ محمود المتمرد على الحكومة في حركات كردستان خلفاً للعقيد بكر صدقي (1931). وعيّن آمراً للمنطقة الشرقية (كانون الثاني 1931) فالمنطقة الجنوبية (تشرين الثاني 1933) فقائداً للفرقة الأولى (1934).

واعتزل الخدمة العسكرية عند انتخابه نائباً عن كركوك في

مجلس النواب (كانون الأول 1934)، وجدّد انتخابه في آب 1935 إلى تشرين الأول 1936.

وتوفي في كركوك في شباط 1937.

اللواء مصطفى راغب باشا

اللواء مصطفى راغب آل صاري كهية ولد في البصرة سنة 1895 لأسرة كركوكية الأصل. أتم دروسه العسكرية في المدرسة الحربية في استانبول وتخرّج ملازماً ثانياً سنة 1912، فألحق بالجيش في ارض روم واشترك في المصادمات الأخيرة في حرب البلقان.

ونشبت الحرب العامة فساهم في معاركها ورفع إلى رتبة رئيس (نقيب) سنة 1918. وقد اشترك في حرب الاستقلال التركي بقيادة الغازي مصطفى كمال باشا (اتاتورك)، ثم عاد إلى العراق سنة 1924. وانتمى إلى الجيش العراقي ودخل دورة الأعوان (1927) فرفع إلى رتبة مقدم (1933) فعقيد (1938) فزعيم (عميد) (1942). ومنح رتبة لواء سنة 1945.

عين رئيساً للمجلس العرفي العسكري سنة 1941، فمدير الميرة والتموين بوزارة الدفاع (1944)، ونقل قائداً للفرقة الثانية في كركوك (1944). وعين في سنة 1948 قائداً للقوات العراقية في فلسطين، وقد استقال من منصبه احتجاجاً على موقف الحكومات العربية المتخاذلة في الحرب، وأحيل على التقاعد بعد ذلك.

محمد سعيد الونداوي

محمد سعيد الحاج حسين الونداوي ولد في كفري (مركز قضاء الصلاحية) سنة 1889، ودرس في المدرسة الاعدادية الملكية ومدرسة الحقوق ببغداد.

أسندت إليه وظائف عدلية في العهد العثماني، فلمّا نشبت الحرب العظمى جنّد في الجيش التركي ومنح رتبة ملازم احتياط، وأسر في جبهة سامرّاء.

واختير سنة 1921 رئيساً لبلدية كفري، ثم انتخب نائباً عن لواء كركوك سنة 1925، وجدّد انتخابه سنة 1928 إلى 1930.

وانتمى إلى سلك الادارة فعيّن قائممقاماً لقضاء كيل (ايلول 1931). ونقل إلى قضاء رانية (ايلول 1933) فدهوك (كانون الثاني 1934) فخانقين (حزيران 1938) فالكاظمية (تموز 1940). ورفّع مفتشاً ادارياً (نيسان 1943)، ثم عيّن عضواً بمحكمة التمييز العشائرية بوزارة الداخلية (1951) واعتزل الخدمة سنة 1952. وأدركه الحمام في 2 نيسان 1954.

ناجي الهرمزي

أحمد ناجي بن علي الهرمزي ولد سنة 1887، والتحق بخدمة الحكومة العراقية في تموز 1921.

عيّن مديراً لناحية التون كوبري في ايار 1927 ورفع قائمقاماً للزيبار (أيار 1932). وتنقل بعد ذلك في الأقضية فكان قائمقاماً لحلبجة (أيار 1934) وعفك ومركز السليمانية (تموز 1936) فالزيبار فتلّعفر (كانون الأول 1938) ودهوك (شباط 1941) وزاخو (آذار 1943). وعيّن معاوناً لمتصرف الموصل (1944) فمفتشاً إدارياً (تموز 1945)، واعتزل الخدمة في سنة 1946.

انتخب نائباً عن كركوك في حزيران 1948. وتوفي في ڤيينا عاصمة النمسا في ايلول 1952.

عرف ناجي الهرمزي أديباً من أدباء اللغة التركية في العراق.

اللواء عمر علي

من قادة الجيش العراقي، ولد عمر علي في كركوك سنة 1910، ودرس في الكلية العسكرية ببغداد فتخرّج فيها ملازماً ثانياً في ايلول 1928. وانتمى بعد ذلك إلى كلية الأركان، وتدرّج في مراتب الجيش حتى أصبح عقيداً (1948)، وحارب في تلك السنة في فلسطين وأبلى بلاءاً حسناً في موقعة جنين. وأصبح آمراً للكلية العسكرية، ورفّع إلى رتبة زعيم، وعهدت إليه متصرفية لواء السليمانية بالوكالة (1954). ثم رفّع لواءاً وعين قائداً للفرقة العسكرية الأولى في الديوانية إلى ثورة تموز 1958. وقد اعتقل عند قيام الثورة، وحوكم أمام محكمة الشعب لمقاومته الثورة وحكم عليه وسجن، ثم عفي عنه وأطلق سراحه سنة 1961.

قيل إنه قتل في حادث سيّارة قرب بلدة الرطبة في أول ايلول 1974. لكن أسرته كذبت خبر الحادث وقالت إنه اغتيل في طريق عودته مع عائلته من بيروت.

رجال التربية وآخرون

عزيز سامي

المربي والمؤلف المترجم عزيز سامي ولد في كركوك سنة 1895 لأسرة قيل إنها عربية النجار. مضى إلى استانبول ودرس في دار المعلمين، وكان مديرها ساطع الحصري، وعمل مدرساً في المدارس التركية.

عاد إلى العراق فانتمى إلى سلك التدريس في ايلول 1926. ونقلت خدماته إلى وزارة المالية سنة 1933 فكان مفتشاً مالياً (آب 1933) فمميزاً لشعبة الخدمة والملاك والعقود. وأعيد إلى وزارة المعارف فعين مديراً لمعارف منطقة كركوك (تشرين الأول 1937) ثم نقل إلى الموصل. وعاد مديراً للخدمة والملاك بوزارة المالية في حزيران 1940.

اعتزل الخدمة بعد ذلك، ثم أعيد بعد ثورة تموز 1958 عميداً لمعهد الفنون الجميلة. وتوفي في بغداد في 19 تموز 1984.

له: جغرافية العراق الحديثة (1929) ملهمات (بالتركية، 1936)، دنيا الباسفيك، عروس الخليج: الكويت (1951).
ونقل عن اللغة التركية كتباً منها: رحلة إلى القمر، والأصل من تأليف جول ڤيرن بالفرنسية (1929)، تضحية معلم من تأليف غريغوري بتروف (1934) في بلاد الزنبقة البيضاء من تأليف غريغوري بتروف أيضاً (1936) حرية الوجدان من تأليف ليون ماريلي (1955) المجنونة لغريغوري بتروف أيضاً (1955) الخطاط البغدادي علي بن هلال المشهور بابن البوّاب من تأليف سهيل أنور (1958) التانجو الأخيرة من تأليف بهاء وفاء قراطاي (1967).



فتحي صفوت قيردار

فتحي صفوت قيردار

رائد الرسم والنحت في العراق واستاذ جيل الفنانين الذين ظهروا منذ الأربعينات، ولد فتحي في كركوك سنة 1896، وهو ينتمي إلى أسرة قيردار المعروفة. كان والده محمد سعيد جلبي من كبار تجار مدينته، ثم انتقل بعائلته إلى بغداد سنة 1905. درس فتحي في المدرسة الرشدية العسكرية ومارس التعليم في مدارس بغداد، ولما نشبت الحرب العامة دعي إلى الخدمة الإلزامية ومنح رتبة ملازم احتياط، وحارب في صفوف الجيش التركي في ساحة فلسطين حتى أسرته القوات البريطانية واعتقلته في طولكرم وثم في سيدي بشر بالاسكندرية.

ولما وضعت الحرب أوزارها مضى إلى استانبول وأتم دراسته العليا في دار المعلمين، وكان مديرها ساطع الحصري، وعيّن بعد تخرجه مدرساً للرسم في مدارس العاصمة التركية، واشترك في دورات لأساتذة الرسم والنحت بإشراف اخصائيين ألمان. ولما تولى ساطع الحصري إدارة المعارف العراقية تذكر تلميذه القديم فتحي صفوة فاستدعاه للقدوم إلى بغداد، وعينه

مدرساً للرسم والاشغال اليدوية (بما فيها النحت) في دار المعلمين الإبتدائية في أول ايلول 1927، فقضى 34 سنة في تلك الدار حتى اعتزل الخدمة سنة 1961. وقد ربّى في دار المعلمين وفي بعض المدارس الثانوية والمهنية التي دعي إلى القاء دروس إضافية فيها أجيالاً من الرسامين والنحاتين برزوا في العراق ورشّح بعضهم لإكمال دراستهم الفنية في إنكلترة وفرنسة وإيطالية ومنهم فائق حسن وعطا صبري وحافظ الدروبي وجواد سليم وغيرهم.

واشترك في الجناح الخاص بالفنانين في المعرض الصناعي الزراعي الذي أقيم في بغداد سنة 1931 فمنح الجائزة الأولى والوسام الذهبي لأحسن عمل تشكيلي. عمل فتحي صفوة تماثيل نصفية للملك فيصل الأول وجميل صدقي الزهاوي والملك غازي وعلي مظلوم وغيرهم. أما في الرسم فكان يميل للرسم بالألوان المائية، لكنه شجع تلاميذه على الرسم بكافة أنواعه. وكان من أبرز تلاميذه في النحت النحات الشهير محمد غني.

وقد سافر إلى استانبول للاصطياف فأدركه الحمام فيها في تموز 1966.

لطفي قيردار

الدكتور لطفي بن عبد الصّمد قيردار من الأسرة الكركوكية التركمانية العروفة، ولد في كركوك سنة 1889 ودرس في بغداد. ثم شدّ الرحال إلى استانبول سنة 1907 وانتمى إلى كلية الطب فتخرج فيها سنة 1913. واختصّ بعد ذلك بطبّ العيون في معاهد ڤيينا (1922) ومونيخ (1924) وباريس.

خدم في حرب البلقان برتبة نقيب (1913)، ثم عيّن في نفس تلك السنة طبيباً في الموصل. ونشبت الحرب العظمى فكان طبيباً عسكرياً في الجبهة السورية وجبل لبنان وطبريّا، وعين في سنة 1918 مديراً لصحة الموصل.

وفي أواخر تلك السنة سلّمت الموصل إلى الجيش البريطاني عند عقد الهدنة فعاد إلى تركية، وعيّن بعد ذلك مديراً لصحة ازمير (1924). وانتخب نائباً عن كوتاهية في المجلس الوطني التركي (1935)، لكنه لم يلبث أن عين والياً لمغنيسية. ونقل سنة 1938 والياً لاستانبول فقضى في منصبه 11 سنة حتى عاد إلى المجلس الوطني نائباً عن مغنيسية (1949) فنائب

استانبول (1954). واختاره عدنان مندرس وزيراً للصحة في وزارته الخامسة (تشرين الثاني 1957) إلى ايار 1960 حين قام الجنرال جمال غورسيل بقلب الحكومة واعتقال رئيس الجمهورية جلال بايار ورئيس الوزراء مندرس وسائر الوزراء وسجنهم في جزيرة ياسي آطه. واعتقل لطفي قيردار معهم فقضى نحبه في تلك الجزيرة بعد عدة أشهر في 17 شباط 1961.

الدكتور إحسان دغرامجي
(طغرامجي)

إحسان الطوغرامجي ابن علي باشا، وأمه عصمت آل قيردار، ولد في أربيل في 3 نيسان 1915. درس الطب في جامعة استانبول وبعد ذلك في جامعة واشنطن واختصّ بطبّ الأطفال. وقد مارس الطب في بغداد بضع سنوات وفي سامراء قبل أن يسافر إلى الولايات المتحدة للاختصاص بطب الأطفال. ثم عاد إلى تركية واستقرّ فيها وعيّن مساعد أستاذ في كلية الطب بجامعة أنقره (1947) ورقي إلى مرتبة أستاذ سنة 1954.

وأصبح مدير البحوث لصحة الأطفال (1958) فعميداً لكلية الطب في أنقرة (1963) فرئيساً لجامعتها (1963 - 1965).

له مؤلفات عديدة في موضوع اختصاصه، وقد اقترن بأيسر حكمت سليمان سنة 1942.

الأدب التركي الحديث في العراق

آل الدفتري

الأسرة الدفترية من أسر بغداد القديمة. قال إبراهيم فصيح الحيدري في كتابه «عنوان المجد» الذي ألفه سنة 1869:

«ومن البيوت القديمة الرفيعة بيت خليل أفندي الدفتري، وهو بيت عزّ. وكان الأفندي المشار إليه من أكابر الرجال الذي لم تزل رجال بغداد تجتمع في مجلسه. وبقي منهم نجله الأديب إبراهيم حلمي أفندي، وهو على سيرة أبيه».

ورأس هذه الأسرة خليل أفندي بن إسماعيل آغا بن طاهر أفندي تولّى منصب متصرف بغداد، ثم نصبه الوالي داود باشا متسلّماً (وَيُوُدَة) لماردين سنة 1823. وعاد إلى بغداد بعد أمد وجيز فكان دفتردار الولاية على عهد الواليين داود باشا وعلي رضا باشا. وكان له مجلس يحضره أرباب الوجاهة. ذكره أبو الثناء المفتي الآلوسي في مقاماته ونعته بـ «نخبة الأخيار وفذلكة

الأجلّة الكبار خليل أفندي الدفتردار». وأدركته الوفاة سنة 1837.

إبراهيم حلمي الدفتري

إبراهيم حلمي بن خليل ولد سنة 1816، واختاره الوالي مدحت باشا رئيساً لبلدية بغداد عند تأسيسها سنة 1869. وشغل هذا المنصب إلى وفاته سنة 1877.

إسماعيل حقي الدفتري

وهو ابن إبراهيم حلمي ولد سنة 1834، وكان رئيساً لبلدية بغداد سنة 1881 - 1989 على عهد الواليين تقي الدين باشا ومصطفى عاصم باشا. وتوفي سنة 1910 في كربلاء، وكان في زيارة لها.

فؤاد الدفتري

وهو خليل فؤاد بن إسماعيل حقي ولد في بغداد في 6 حزيران 1862 ونشأ نشأة أبناء الأشراف في عهده. وقد درس على أساتذة خصوصيين وعيّن عضواً بمحكمة البداءة وبعد ذلك في محكمة الاستئناف (1889). ثم أجيز في الحقوق وعيّن نائباً للمدعي العام في الديوانية (1894) فكربلاء (1898 - 1903). وشدّ الرحال إلى الأستانة سنة 1905 فمكث فيها نحو ثلاث

سنوات. وعيّن بعد عودته إلى بغداد مدعياً عاماً في العمارة فبغداد فرئيساً لمحكمة جزاء كربلاء فبغداد.

وانتخب فؤاد الدفتري نائباً عن كربلاء في مجلس المبعوثين (نيسان 1912) فنائباً عن بغداد (كانون الثاني 1914). وكان في زيارة لبغداد حينما تقدم البريطانيون لاحتلالها في آذار 1917، فمضى بأسرته إلى الآستانة عن طريق سامراء والموصل. وعاد إلى بغداد بعد الهدنة سنة 1919 فكانت له في الحركة الوطنية مواقف محمودة نفي على أثرها إلى استانبول عن طريق الهند ومصر (آب 1920).

عاد إلى العراق في كانون الأول 1921 فعيّن محافظاً لبغداد (حزيران 1922) حتى استقال في 3 ايلول 1923. وانتخب في السنة التالية نائباً عن الدليم في المجلس التأسيسي، وأصبح عضواً بمجلس الأعيان في تموز 1925. وتوفي في بغداد في 23 آذار 1927.

كان فؤاد الدفتري يحظى باحترام المحافل الوطنية والاجتماعية. وكان حزب الشعب الذي يرأسه ياسين الهاشمي يعقد جلساته في معظم الأحيان في داره، لكنه (أي فؤاد) لا يحضرها بل يحضر ولده محمود صبحي. فإذا جاء إلى بيته قام الهاشمي وصحبه يحيّونه بكل تجلّة فيدخل إلى الحرم ويبقى

الجمع في «الديوان» أي الدار الخارجية.

وكان الهاشمي يأنس بهذه الجلسات فيقول بالفصحى: بالله عليكم أكثروا من هذه الاجتماعات!.

وقد كان فؤاد الدفتري وقوراً متمسّكاً بالآداب القديمة، لكنه يخفي تحت مظهره الجادّ روحاً مرحة متسمة بالتفهّم والتساهل.

محمود صبحي الدفتري

إنّ بغداد التي أنجبت في الزمن القديم فضولي وفضلي وعهدي ونظمي وسواهم من أئمّة الأدب التركي لم تعدم، في أوانها الأخير، أديباً ألمعياً عارفاً بالآداب العثمانية القديمة، ملمّاً بأخبارها وأسرارها، شهد له بذلك أدباء الترك أنفسهم مثل سليمان نظيف ورضا توفيق وفؤاد كوپرولو وغيرهم ممّن عرف مواهبه ومزاياه وقدّره حقّ قدره.

هذا الأديب التركيّ القديم في بغداد الحديثة هو محمود صبحي الدفتري الرجل النبيل، ذو المواهب المتعددة والآداب الرفيعة.

ومحمود صبحي ينتمي إلى أسرة بغدادية عريقة ارتبطت ببلدية بغداد بأوثق رباط، فقد كان جدّ أبيه إبراهيم الدفتري أول

رئيس للبلدية يوم أنشأها الوالي المصلح مدحت باشا سنة 1869. ثم تسنّم هذا المنصب بعد ذلك جدّه إسماعيل وخاله رفعت الجادرجي وابن خاله رؤوف الجادرجي في العهد التركي، وتولاه ابوه فؤاد الدفتري بعنوان: «محافظ بغداد»، ثم نهض به هو نفسه مرّتين باسم «أمين العاصمة».

ولد محمود صبحي بن فؤاد بن إسماعيل بن إبراهيم بن خليل الدفتري في بغداد في 14 كانون الأول 1889 ونشأ نشأة أبناء الأشراف في ذلك العهد. ورافق أباه إلى الديوانية حيث كان نائب المدعي العام (1894) فكربلاء (1898) إلى سنة 1903. وتخرج محمود صبحي في المدرسة الاعدادية فعيّن كاتباً في دائرة ولاية بغداد وألحق بسكرتيرية ناظم باشا رئيس الهيئة الاصلاحية ووكيل الوالي (1907). وانتمى إلى مدرسة الحقوق عند افتتاحها (آب 1908) فنال اجازتها سنة 1912.

شغف بالأدب التركي والتاريخ العثماني منذ حداثته، فلما عيّن سنة 1913 مدرساً للأدب في المدرسة السلطانية في بغداد، أتيحت له الفرصة للتوسع في هذا المجال وإشراب طلابه حبّ هذا الأدب الذي كان العراق موطناً من مواطن نشوئه وازدهاره، وكانت اللغة العربية، إلى جانب اللغة الفارسية، مصدراً من مصادره. وجاء إلى بغداد الوالي الأديب سليمان نظيف بك (كانون الثاني 1915)، فاتصل به مترجمنا ولازمه ملازمة الأديب

للأديب، وكانت تلك الصلة فاتحة نشاطه الأدبي في عاصمة الدولة العثمانية حينما هيئت له زيارتها بعد سنتين.

واحتلّ الانكليز بغداد في آذار 1917 فانسحب موظفو الولاية من الأتراك عشيّة يوم الاحتلال بقطار سامرّاء، وهو القطار الذي أنشأه الألمان جزءاً من سكة حديد برلين ـ البصرة. وكان فؤاد الدفتري النائب في مجلس النواب التركي موجوداً في بغداد، فالتحق بموظفي الدولة ورافقه ابنه محمود صبحي، فمضيا إلى الآستانة عن طريق الموصل.

الآستانة وعبد الحق حامد

قضى محمود صبحي في قاعدة الدولة والخلافة في هذه الحقبة سنتين كانتا من أحفل أيام حياته وأزخرها بالذكريات الأدبية: فقد كان يعرف من أسرار التركية وآدابها وتأريخ آل عثمان ووقائعهم ورسوم بلاطهم وسلاطينهم وأحوال «فروق» عاصمة دولتهم، كان يعرف من كل ذلك، وهو الفتى البغدادي الذي لم يزر الآستانة من قبل، أكثر مما يخطر ببال معظم أبنائها. وقد فتحت له في ربوعها آفاق رحبة. فسرعان ما جدّد العهد بسليمان نظيف بك وسائر رجال الترك الذين عرفهم من قبل في مسقط رأسه، وسرعان ما تعرّف بأساطين الثقافة والأدب، وفي مقدمتهم عبد الحق حامد، أعظم شعراء الترك

المعاصرين بلا منازع، والدكتور رضا توفيق الطبيب الشاعر الفيلسوف، وفائق عالي الشاعر أخو سليمان نظيف، والشاعرة المتحررة نيكار هانم عثمان (1871 ـ 1918)، وغيرهم.

شارك محمود صبحي في الحياة الأدبية التركية، وقد كانت حياة محمومة في ظلّ غمامة الحرب الكئيبة، فحضر مجالس الأدب وندوات أرباب الوجاهة والثقافة، وكتب في الصحف التركية دفاعاً عن العرب رداً على التخرّصات والتعريضات، وساهم في رثاء أحرار الأمة كسليمان نسيب بك الذي كان في حين ما مديراً لمعارف بغداد. وكانت صلته وثيقة برجال العرب النازلين في دار الخلافة ولا سيّما العراقيين كفهمي المدرس ومعروف الرصافي... وكان يعدّ في ذلك العهد من أرسخ الشباب قدماً في الآداب التركية من عاشق باشا وسنان باشا وفضولي وباقي ونفعي ونابي إلى شناسي والمعلم ناجي ونامق كمال، وأعرفهم بالشعر ولغة الدواوين المنمقة والديباجة المزخرفة القديمة، تلك الديباجة التي قضى عليها كمال أتاتورك حين أوعز بتبسيط اللغة واصطناع الحروف اللاتينية.

وقد توثقت صلة الدفتري بالشاعر الأعظم عبد الحق حامد حتى أصبح كاتب وحيه، ولا غرو، فالشاعر أشبه ما يكون بالنبيّ، وقد قال توماس كارليل في «أبطاله»: «يحمل النبيّ إلى البشر رسالة الواجبات، أما الشاعر فيحمل لهم رسالة الجمال.

ذلك قرأ السرّ العظيم فأنار للعالم طريق الناموس، وهذا قرأه فأنار للعالم طريق المحبة!». وقال عبد الحق حامد في بعض قصائده:

«وأنا ماذا دهاني؟. ألست شاعراً، فلِمَ لم يأتني الوحي ولم يهبط عليّ الالهام؟».

حدّثنا محمود صبحي الدفتري أنه زار عبد الحق حامد في منزله في بعض الأيام، وكانت زوج الشاعر الفرنسية الثالثة جالسة. كانت الحرب قائمة على قدم وساق، وقد أضرت بالناس وأرهقتهم في معايشهم، فتحسرت الفرنسية الشابّة وقالت: «ليتني عشت في عصر لويس الخامس عشر»!. تقصد عصر مدام دي بومباردور وسيّدات البلاط وعهد البذخ والترف والأناقة. فاهتزّ الشاعر الشيخ على كرسيّه المتحرّك وأغمض جفنيه إغماضة الحالم وقال: «ليتني أدركت عصر الرسول الأعظم ففزت بالسعادة وكنت من الصحابة»!.

وقال محمود صبحي على الفور: «لقد كتبت لنا السعادة وكنّا من الصحابة»!. يشير من طرف خفيّ إلى قول الشاعر. فتملكت عبد الحق النشوة وتأرجح على كرسيّه وكرّر كلمة حواريّة البغدادي مراراً، وهو يشفعها كل مرة بعبارة: استغفر الله، استغفر الله!.

سلاطين آل عثمان

إن الآستانة وجزرها الحالمة وقصورها الشاهقة وسلاطينها الذين دانت لهم الدنيا عهداً طويلاً وتقاليد البلاط والدواوين المشربة بالبهرج والفخفخة والفخامة قد سحرت الشاب الأديب وبهرته. ومن الذكريات التي طالما ردّدها محمود صبحي ورواها حضوره تشييع جنازة السلطان محمد رشاد الخامس الذي توفي في 3 تموز 1918 وتنصيب أخيه محمد وحيد الدين السادس في قصر يلدز المنيف: لقد اصطف الوزراء ورجال الدولة والعلماء والمشايخ في البهو العظيم مرتدين ملابسهم الرسمية ومتقلدين أوسمتهم وسيوفهم، وسار الموظفون والحشم والخدم في أجنحة القصر وأروقته على رؤوس أصابعهم في صمت مهيب. وجاء السلطان الجديد مرفوع الرأس حادّ الملامح، يحفّ به الجلال والوقار. وفجأة ارتفع صوت خفيّ من وراء الستار يشقّ السكون، صوت هادىء النبرة، طويل النفس، بدأ خافتاً ثم أخذ يتعالى ويتعاظم شيئاً فشيئاً وكأنه آتٍ من عالم بعيد، بل كأنه هابط من ملكوت السماء. وتملّك الجمع الروعة والخشوع، فاطمأنّت أنفسهم واغرورقت عيونهم بالدموع، وأصغوا إلى الهاتف يقول ويردّد ترديداً بلغة تركية قديمة قدم الأجيال: «أيها السلطان، أنت عظيم، لكن الله أعظم منك. أيها السلطان، أنت عظيم، لكن الله أعظم منك. . .».

من الطرافة أن نذكر، في هذا الصدد، ما روته قصص ألف ليلة وليلة على لسان السندباد البحري في رحلته السادسة عن ملك جزيرة سرنديب أنه، حين يخرج من قصره، يجلس على عرش يوضع له على فيل. ويقف أمامه على نفس الفيل ضابط يحمل رمحاً من الذهب، ووراءه آخر يحمل صولجاناً ذهبياً على رأسه زمردة نفيسة. ويحفّ بالموكب الوزراء والأعيان ويمشي بين يديه وخلفه الآف الحرس على الأفيال لابسين أبهى الحلل.

وحين يسير هذا الموكب بين جموع الناس يصيح الضابط الواقف أمام الملك بين الحين والآخر:

«هذا هو الملك العظيم الجبّار سلطان الهند، المفروش قصره بالياقوت والذي يملك ألوف التيجان من الجواهر. هذا هو الملك المتوّج أعظم من سليمان وأكبر من مهراج. . .»،

فإذا فرغ الأول من هذا الكلام صاح الرجل الثاني الواقف وراء الملك:

«إن هذا الملك الجبّار العظيم يخضع للموت، يخضع للموت، يخضع للموت»!.

ويجيب الأول قائلاً:

«سبحان الحيّ الذي لا يموت، سبحان القيّوم»!.

*

وضعت الحرب أوزارها واحتلّ الحلفاء عاصمة آل عثمان ورابطت جيوشهم على ضفاف البوسفور، فعاد محمود صبحي مع أبيه إلى بغداد سنة 1919. ولم يلبثا أن رأيا عاصمة العراق تعجّ بالفورة الوطنية، فالناس متلهفة إلى الحرية والاستقلال، والنفوس هائجة مائجة كما لم تهج ولم تمج منذ عهد هولاكو وشراذم المغول، والكهول والشباب المثقف كلهم مأخوذون بالحماسة اللاهبة لا يقرّ لهم قرار. ودخل فؤاد الدفتري وابنه محمود وقريبه رفعت الجادرجي في المعمعان، فقبضت عليهم السلطات العسكرية في 28 آب 1920 وزجتهم في السجن ثمَ أشخصتهم إلى الآستانة عن طريق الهند. ولبثوا هناك سنة وبعض السنة، حتى سمح لهم بالعودة بعد اعتلاء الملك فيصل عرش العراق، فآبوا إلى بغداد في 7 كانون الأول 1921.

جدَد محمود صبحي صلته بأصدقائه من رجال الفضل والأدب في العاصمة التركية في اقامته الثانية بها. وعاد إلى بغداد، فعيّن مشاوراً حقوقياً لأمانة العاصمة (13 آذار 1923). وانتخب نائباً عن لواء الدليم في المجلس النيابي الأول (تموز 1925)، ثم ناب عن ديالىٰ في المجلس الثاني (أيار 1928).

وعيّن أميناً للعاصمة في 8 نيسان 1930 واستمرّ في منصبه إلى 5 ايلول 1931. ثم عهدت إليه رئاسة كلية الحقوق (تشرين الثاني 1931)، غير أنه آثر الاستقالة. وعاد إلى الوظيفة مديراً

عاماً للطابو (28 كانون الأول 1932) فأميناً للعاصمة للمرة الثانية (26 تشرين الأول 1933) فمدير البلديات العام (تشرين الثاني 1936)، وقد استقال في كانون الثاني 1937.

وعيّن عضواً بمجلس الأعيان (17 تشرين الأول 1937). وأصبح وزيراً للعدلية في الوزارة السعيدية الثالثة (25 كانون الأول 1938). واحتفظ بمنصبه في الوزارة السعيدية الرابعة (6 نيسان 1939) إلى 18 شباط 1940. ثم اشترك في الوزارة السعيدية الثامنة وزيراً للخارجية (25 كانون الأول 1943 ـ 3 حزيران 1944).

وكان له في مجلس الأعيان الذي استمرّ عضواً فيه إلى 17 تشرين الأول 1945 مواقف وخطب، أبرزها معارضته لتعديل القانون الأساسي في حزيران 1943مستنداً إلى ظروف الحرب وتقييد حرية الاجتماع والكلام.

وكان من آرائه الصائبة أن الحكومة قد أرادت بتعديل الدستور معالجة أمور طارئة وغاب عن بالها أن الدساتير لا تشرّع لمعالجة الثورات بل لتثبيت الأسس والقواعد الدستورية، وإنما تعالج الحوادث بالاصلاح الإداري والكياسة والحزم.

وقد اعتزل محمود صبحي الحياة العامة بعد ذلك وانصرف إلى أشغاله الخاصة. وله مكتبة تضمّ أكثر آثار الأدب التركي

والتاريخ والوثائق العائلية والرسمية والسالنامات (التقاويم) التركية وغيرها من الأسفار والمخطوطات النادرة. وهو، إلى ذلك، أعلم رجال عصره بالأصول والمراسم (الاتيكيت) وتقاليد الدواوين وخطوطها، وأخبار الأسر والبيوتات الكريمة ونوادر الرجال النابهين، من عراقيين وأتراك، ممّن سمع بهم وقرأ عنهم أو عرفهم وخالطهم على مرّ السنين. وهو سياسي لبق ومحدّث ساحر يطيل في سرد ذكرياته ومشهوداته الرائعة، مسترعياً أسماع الحاضرين. ولكم يتقمص دور الأستاذ أو المحاضر ليجلو صفحة أدبية أو حادثة تأريخية وليروي الفائق من الشعر أو النثر وليترجم لجلسائه عن التركية أو الفارسية طرفاً وتحفاً تبدو كمخلوقات عجيبة من عالم ذهبيّ. قد غاب في الأمس البعيد.

مجلس الجمعة

لا يكون الكلام في سيرة محمود صبحي الدفتري كاملاً دون الاشارة إلى «صالون الجمعة»، ذلك المجلس الذي ورثه عن آبائه وأجداده واستمر يعقده في داره صباح كل جمعة أكثر من أربعين سنة، فتحضره الأجيال المتعاقبة من رجال الوجاهة والفضل والعلم والأدب والسياسة والكياسة. إن هذا المجلس ليمثل خير ما كان مأثوراً عن بغداد القديمة وبيوتها الكريمة ورجالها أولي الرزانة والوقار..

ومجالس الجمعة كثيرة، لكن مجلس الجمعة إذا ذكر

مجرّداً عن النعت أو القرينة في بغداد لم يخطىء السامع أنه مجلس الدفتري، ذلك المجلس العامر الذي يكثر قصّاده ويختلف رواده: منهم المبكّر والمضحّي، والمكثر والمقلّ، يؤلفون في جوانبه وأبهائه الحلقات، ويتجاذبون أطراف الحديث في شتى المواضيع، من تأريخ واجتماع وعلم وأدب وشعر وفكاهة، بينما يطوف عليهم الخدم بالقهوة والشاي والمرطّبات حسب المواسم.

أما ربّ الدار فمثال اللطف والحنكة والبشاشة، يفيء على مجلسه ظلاً من روحه وارفاً، ويغمر ضيوفه برقته وفضله. يتنقل بين صفوفهم، فيخاطب هذا ويداعب ذاك، ويأخذ بمجامع ألبابهم حين يروي لهم طرفة من ذكرياته أو يتلو عليهم تحفة أدبية رائعة من مختارات ذوقه السليم. وإذا كان «الاستقبال» فنّاً لا يحذقه إلاّ من كان فيه طبع لا تطبّع، فإن مضيافنا الكريم قد حازه سليقةً واتقنه خليقة وأبدع فيه ما شاء له الإبداع.

وللوطنية في هذا المجلس دولة، وللأدب فيه صولة وجولة، فأحاديثهما تغلب على سائر الأحاديث ومواضيعهما تمتاز بالطرافة الطلاوة. ولكم أتيح لهذه الندوة أن تستمع إلى أحاديث، منها ما يفور حماسة وما يتدفق بلاغة، ومنها ما يلذع سخرية وتهكماً وما يتروّق حكمة ووقاراً!. ولقد تقرقر «النارجيلة» في طرف من أطراف البهو الكبير، فيؤلف صوتها

إيقاعاً راتباً يضرب على وتيرته حديث المتكلمين.

لقد انفرد هذا المجلس البهيّ بميزة اختصّ بها: فقد أبيحت حرمه لقطط أصيلة، فسرحت في «مدينة الضيوف» ومرحت مثلما فعلت أخوات لها في «مدينة الكتب» التي حدثنا عنها أناتول فرانس في قصة بطله الخالد «سلفستر بونّار». وأية قطط هذه القطط العزيزة؟.

قطط لاحت (أمر عجبُ!)	ولها رأس ولها ذنب
ولها فهم ولها أدب	ولها حسب ولها نسب
تغدو وتروح على مهلٍ	ليس تدري ماذا الأرب
وتداعب ضيفاً في غنجٍ	فيحار أجدّ أم لعب؟.
فوقار جاء بلا كلف	ودلال بان ولا سبب
وإذا ملّت مرحاً وعنا	طلبت مثوى فيه رحب
ومضت تغفو لا يوقظها	صوت أو يقلقها طرب
أترى كسل قد أبعدها	حقاً أم أعياها التعب؟.
علمت عن حدس أو فطن	أن واتاها حظّ عجب
فغدت بالقسمة راضية،	لا تنغص عيشتها الكرب.

عبد الحق حامد

إن الدفتري المعجب بعبد الحق حامد الشاعر، المقدّس لعبد الحق حامد الرجل، يحتفظ ببعض القصائد بخطّ عبد الحق

أعزَّ تراث وأثمنه لديه. وكثيراً ما يروي شعره ويحدث جلساءه عن سيرته ونوادره.

كان عبد الحق حامد قد تزوج في شبابه «فاطمة» وأنجبت له ابنه حسين بك، ثم توفيت في ريعان الشباب في بيروت، فحزن عليها حزناً شديداً ونظم في رثائها ديواناً كاملاً من الشعر الشجيّ باسم «مقبر» (المقبرة). (ترجم قسماً من هذا الديوان إلى العربية الأديب الكركوكي فهمي عرب آغا وطبعه كراريس في بغداد سنة 1953). ومضت الأعوام، وعيّن عبد الحق سفيراً للدولة التركية في بروكسيل، فالتقى بفتاة فرنسية جميلة واقترن بها على كبر. وجاء بها إلى الآستانة فكانت ربة داره وسلوى أيام شيخوخته.

حدثنا استاذنا الدفتري قال: كانت هذه الفرنسية اللعوب (لوسيين) متحررة في بيئة متزمتة لا تستسيغ تلك الحرية وفي دار رجل له مكانته في قومه شاعر وسفير سابق ونائب لرئيس مجلس الأعيان. فقرّر أصدقاء الرجل، وفي طليعتهم سليمان نظيف، أن ينبهوه إلى مسلك قرينته ويسألوه الحدّ من تحررها. فزاروه في داره وفاتحوه في الأمر، لكنه وهو الأديب المرهف الحسّ الذي عاش في أوروبا سنين طويلة، لم يكترث بتحذيرهم وأعارهم أذناً صمّاء. فقرر سليمان نظيف أن يمتنع عن زيارة عبد الحق حامد في داره لأنه طعن في ربّة البيت. ولما كان لا يستطيع

الصبر عن لقائه، اتفق معه أن يجتمع به مرتين في الاسبوع في بعض المقاهي الراقية.

وفي ذات يوم جاء نعي حسين بك نجل الشاعر العظيم من واشنطن، وكان قنصلاً عاماً لتركية فيها، فذهب محمود صبحي لتعزيته. قال: وجاءني سليمان نظيف وسألني أن أذهب إلى عبد الحق وأدعوه إلى بيته كي يقدم تعزيته إليه إذ قد حرّم على نفسه زيارته في داره. وكان كذلك، فمضى عبد الحق يصحبه الدفتري إلى دار سليمان نظيف ليتلقى تعزيته في نجله!.

ودارت الأيام دورتها واحتل الحلفاء الآستانة وسرح رجالهم وضباطهم في ربوعها. وتعرفت زوجة عبد الحق حامد بأحد الضباط الإيطاليين من النبلاء الأغنياء وأتت إلى زوجها الشيخ في بعض الأيام وقالت: إنك ولا ريب تحبّني وتريد لي الخير. قال: أجل.

- اذن إسمح بطلاقي لاتزوج الضابط الإيطالي الشاب الذي يحبّني ويستطيع إسعادي أكثر منك.

ولم يتلكّأ الشيخ في اجابة سؤالها فتمّ الطلاق والزواج، وسافرت إلى إيطاليا مع قرينها الجديد. ولم تمض أشهر قليلة حتى وردت إلى عبد الحق دعوة من زوجه السابقة لقضاء أسابيع

في قصرها الجميل على البحيرة، فشدّ حقيبته ولبىّ الدعوة مسروراً.

ثم مضت شهور أخرى، وتلقى الشاعر خطاباً من زوجه السابقة تقول إنها شقية تعسة وأنها ترغب في الرجوع إلى عصمته والعيش بقربه عوداً على بدء، فهل يرضيه ذلك؟. نعم، لقد كان ذلك يسعده ويرضيه!. وإنه لمنظر رائع يجلّ عن الوصف أن ترى الشيخ الوقور، مرتدياً بدلة «الردنكوت» وحاملاً باقة الورد، يقف باسم الثغر، محنيّ الظهر، في محطة القطار ليستقبل زوجته العابثة العائدة.

وقال للذين لاموه على ما فعل: «إذا عشتم جيلاً أو جيلين آخرين فلن تلوموني، بل ترون الأمر طبيعياً!».

وتوفي عبد الحق حامد سنة 1937، فأكرمت الجمهورية التركية ذكراه، وخصصت لأرملته الفرنسية «لوسيين» راتباً خاصاً وأحاطتها بالرعاية اللائقة بمن كانت زوجة أكبر شعراء الترك في العصر الحديث.

ولقد كان عبد الحق حامد من رجال الدولة المرموقين خدم في المناصب العامة حقبة من الدهر طويلة، لكنه كان مع ذلك كثيراً ما تتغلّب عليه بوهيمية الشاعر. فقد أفضى إلى محمود صبحي أنه احتاج إلى النقود في بعض الأيام وهو سفير

في بروكسيل على عهد السلطان عبد الحميد الثاني فباع وسامه المرصّع بالماس ليحصل على مال يفرّج عنه الضيق. وسأله الدفتري: وهل علم السلطان بذلك؟. فقال: نعم، لقد علم بالأمر بعد حين فأمر بأن أمنح بديلاً عنه.

من ذكريات محمود صبحي التي حدثنا عنها أن الحرب العامة نشبت سنة 1914 وخاضت الدولة التركية غمارها وسرعان ما حاقت بها الخسائر والمصائب، وعبد الحق حامد ساكت لا يفوه بكلمة. وعتب عليه، قيل له: أنت شاعر الأمة، فكيف تلتزم الصمت والأمة في محنتها؟.

نظم عندئذٍ قصيدته العصماء في الوطن، استهلّها بذكر أمّه وحنانها، وكانت اسمها فتحية هانم، أديبة فاضلة تقول الشعر بالفارسية والتركية والعربية. ثم تخلّص إلى ذكر الوطن، وقال إن الوطن هو الأم التي تحنو على أبنائها وتنشئهم نشأة حسنة فواجب عليهم محتوم أن يرعوا عهدها ويخلصوا لها ويدافعوا عنها.

وكانت قصيدته تلك خير مساهمة في الحرب.

ذكريات عن سلاطين آل عثمان

كان حديث محمود صبحي عن سلاطين آل عثمان أشبه بالمحاضرات التأريخية الممتعة، فقد رسم صورة حيّة للسلطان مراد الرابع فاتح بغداد، ذلك الفتى الجسور إلى حدّ التهور، القاسي القلب الذي لم يعرف معنى التردّد والتراجع، فرض نفسه بحوله وطوله على وزرائه والجيش والشعب، وأصبح حاكماً بأمره في العشرين من سنه وقضى نحبه في التاسعة والعشرين.

أما خلفه السلطان إبراهيم المجنون فحديثه عجيب غريب، فقد كان منصرفاً إلى العبث واللهو، تاركاً مقاليد الأحكام إلى والدته. وكان يصفّ المئات من جواريه الحسان عصر كل يوم في حديقة قصره المطلّ على بحر مرمرة ليرقصن بين يديه عاريات. فلمّا قيل له إن أصحاب القوارب المارّة في البحر يتفرجون على هذا المشهد الخليع، أمر بمنع سير السفن والزوارق عند الأصيل!. وكانت خاتمته أن تمرد عليه الجيش وفتك به فتكاً.

والدفتري يقدّر السلطان عبد الحميد الثاني ويعجب بوقاره

وعظمته. ويذكر له موقفين يدلان على رباطة جأشه وقوة شكيمته: الموقف الأول حينما حاول الأرمن اغتياله في آب 1905. وكان من عادة السلطان أن يذهب إلى صلاة الجمعة في موكب عظيم، فإذا خرج من الجامع وقف له الناس وصعد إلى عربته التي يجرّها جوادان مطّهمان، آخذاً العنان بيديه ليعود إلى القصر. وكان وقت الخروج وسير الجوادين المدرّبين معيناً بدقة وإحكام لا يتأخر دقيقة واحدة، فوضع أرباب المؤامرة قنبلة زمنية في طريق العودة من الجامع موقتة لتنفجر عند مرور المركبة السلطانية. لكن حدث لحسن حظ عبد الحميد أنه في ذلك اليوم المقرّر تأخر دقائق قليلة عند خروجه إذ شاهد الشيخ أبا الهدى الرفاعي واقفاً، وكان قد أبلّ من مرض طارىء، فوقف هنيهة يسأله عن صحته. وهكذا انفجرت القنبلة قبل مرور العربة بلحظات قليلة فسمع لها دويّ هائل وبلغ من عنفها أن قتلت جمعاً من الناس والجند. ومرّ السلطان بين الأشلاء الممزقة والأعضاء المتناثرة لا تطرف له عين وبلغ قصره هادئاً ثابت الجنان[1].

أما الموقف الثاني فكان في قصر «يلدز» في قاعة العرش

---

(1) وصف عبد العزيز القصاب هذه الحادثة وصفاً مسهباً في كتابه «من ذكرياتي» (1962) ص 35 - 38.

يوم العيد، وقد جلس السلطان على أريكته الرفيعة ووقف الأمراء والوزراء ورجال الدولة والمشايخ عن يمينه ويساره بألبستهم المزركشة. وفي جانب القاعة شرفة مرتفعة ضمّت الجوق الموسيقي العسكري يصدح بالأنغام الحماسية. وحدث فجأة ما لم يكن في الحسبان.

قال الدفتري: حدثني عبد المحسن السعدون، وكان مرافقاً للسلطان يقف وراءه مع سائر أفراد الحاشية، فإذا بهزة أرضية تزلزل أركان القصر. فساد الهرج والمرج وعمّت الفوضى وهرب أرباب الدولة يتسابقون في الخروج من الأبواب والنوافذ ويتعثرون بقلائد أوسمتهم وحمائل سيوفهم. أما السلطان عبد الحميد فلبث على عرشه لا يحرّك ساكناً. وتقدم منه شيخ من أجلّة الوزراء فقبّل ذيل معطفه الفضفاض، وخاطبه قائلاً: ليتفضل مولانا السلطان بالخروج لئلا يعرض نفسه للخطر. لكن السلطان ركله برجله. وكان الزلزال قد هدأ، فرفع يده وأومأ إلى الجوق الموسيقي بمواصلة العزف. وعاد الأمراء والكبراء إلى أماكنهم مخفوضي الرأس، يجرون أذيال الخيبة والخجل، ليتابعوا مراسيم التهنئة والخضوع.

إن رباطة جأش السلطان عبد الحميد في مواقفه الحرجة لا يضاهيها سوى موقف نابوليون الأول امبراطور الفرنسيّين حين دخل منتصراً إلى موسكو عاصمة روسيا القيصريّة.

كـان ذلـك فـي 14 أيلـول 1812. دخـل نـابـوليـون إلـى مـوسكـو، ولكـن أيـن القيصـر، أيـن الجيـوش، أيـن سكـان المدينة؟. وجد الشوارع والدور خالية تنعى من بناها وكأنّها بلدة مسحورة تسكنها الأشباح. ومضى إلى قصر الكرملين، تحف به حاشيته وقواده، وسار في الدهاليز الفخمة والحجر الباذخة والقاعات الأنيقة، أثاثها من الذهب والأرجوان، ومجالسها من الحرير والدمقس، وزينتها تبهر العيون بنفاستها ورونقها. وهذه قاعة العرش، لكنها خالية خاوية كغيرها من الغرف والممرات والقاعات.

ونظر العاهل الذي أذهله العجب وعقد لسانه، نظر من النافذة فلم ير إلا السكون الذي أناخ على المدينة بكلكله الكثيف الثقيل. وفجأة، وقد حلّ الليل ولفّ البلدة المهجورة بظلامه الدامس، ارتفعت في أقصى الجهات الأربع ألسنة النار؟. ماذا، أيحرق الروس عاصمتهم العظيمة، أم تلك أحلام كاذبة تنسجها أيدي الخيال؟.

لكن تلك لم تكن إلا الحقيقة التي لا ريب فيها. وقد جاء الضبّاط والجنود يتراكضون ويقولون إن النار قد شبّت في البيوت والطرق وأحاطت بالمباني والميادين، وهي تقترب من قصر الكرملين بسرعة فائقة. وارتبك بعض أفراد الحاشية، لكن

الأمبراطور ـ كما قال مرافقه الكونت دي سيغور ـ لم يفقد رشده. ثم قيل إن القصر ملغم وعمّا قليل ينفجر، فهلع بعض الحاضرين، ووقف الضباط جامدين ينتظرون قرار قائدهم. وافتر ثغر الأمبراطور عن ابتسامة غريبة وهو غير مصدّق للنبأ. وجاءت الريح بالدخان، وتطايرت ذرّات الرماد في الهواء، وحاول الأمراء الأقربون جرّ سيّدهم وإخراجه من هذا الجحيم الذي يطبق عليه، لكنه لم يحرّك ساكناً. وصاح صائح أن النار قد شبّت في أركان القصر، ولم يزد الأمبراطور على ابداء إشارة الغضب وعدم المبالاة. ثم سار بخطى ثابتة، ونزل السلالم، وخرج إلى الشارع، وأمر أن يمضوا به إلى خارج المدينة الملتهبة. وكانت النار قد أحاطت بالبلدة وسدّت المنافذ، وبعد لأي وجد طريقاً بين الصخور يفضي إلى النهر مرّ منه العاهل يتبعه أصحابه وجنوده، وهو محتفظ بهدوئه وجلادته!.

نوادر ولاة بغداد

إن معرفة الدفتري بولاة بغداد وأخبارهم لا يدانيه فيه مدانٍ، وقد عرف فريقاً من متأخريهم معرفة شخصية. ومن الولاة الذين سمع بهم وعلم أحوالهم تقيّ الدين باشا آل المدرس الحلبي الذي ولي أمور بغداد مرتين، وقد نشأ ـ على ما أخبرنا استاذنا الدفتري ـ نشأة دينية وأصبح مفتي حلب. كان لبقاً فطناً جريئاً إلى حدّ لا يتفق وحرمة الافتاء، فعزله الوالي. وقرر الشيخ تقيّ الدين أن يشخص إلى الآستانة ليشكو والي حلب إلى الصدر الأعظم، لكنه رأى الذهاب أولاً إلى المدينة المنوّرة ليتبرّك بزيارة قبر الرسول الأعظم ثم يعرج من ثمّ على دار الخلافة.

ولما وصل إليها بعد مضيّ وقت طويل، سأل عن الصدر الأعظم فقيل له إنه نفس الوالي الذي تركه في حلب وقد استدعي خلال ذلك إلى العاصمة وقلد منصب الوزارة. ولم يفتّ ذلك في عضد الشيخ فطلب مواجهة الصدر الأعظم وقال له: يا سيدي، لقد عزلتني بغير حقّ. وقد جئت إلى الآستانة لأشكو

آمري إلى الصدر الأعظم بعد أن زرت قبر النبي، فالآن اشكو إليك والي حلب سائلاً إياك النصفة والعدل.

فابتسم رئيس الوزارة وقال: أيها الشيخ، إنك أصلح للإدارة منك للقضاء، فهل ترضى أن تخلع العمامة والقفطان فتكون متصرفاً؟. قال: نعم. وعيّن تقي الدين بك متصرفاً وأظهر في منصبه الجديد مقدرة وكفاءة، ولم يمض طويل وقت حتى عيّن والياً في بغداد، وعمره نحو من 35 سنة.

وبلغ من ذكاء تقي الدين باشا أنه كان يزور الآستانة ذات مرة فدعي إلى مقابلة السلطان عبد الحميد. فلما مثل بين يديه وانحنى ليلثم أذياله سقط الوسام المعلق على صدره، فما كان من الوالي إلا أن قال: «إن الوسام يقبل أقدام مولانا صاحب الجلالة ويسأله الترفيع». فأمر السلطان بمنحه وساماً أعلى درجة.

ومن الولاة الذين أعجب بهم الدفتري مصطفى عاصم باشا الذي كان له شأن في ولاية بغداد والشام. أبدى حزماً وصولة، وقرّر مرة أن يهين النقيب السيد سلمان لخبر بلغه عنه، غير عابىء بمكانة النقيب لدى السلطان عبد الحميد. بيد أن بعض أشراف بغداد قد تمكنوا من تدارك الأمر وإعلام النقيب بتجنّب حضور اجتماع مجلس الولاية حتى انجلى الأمر.

ويروي الدفتري أن عبد الوهاب باشا الألباني الذي تسنم منصب ولاية بغداد بعد ذلك، وكان منسوباً إلى مصطفى عاصم باشا، كان يلعب الشطرنج مع إسماعيل الدفتري جدّ محمود صبحي، فتوقف عن اللعب وسأله: هل عرفت الوالي مصطفى عاصم؟. قال: أجل، وقد كنت رئيس البلدية في عهده. فقام الوالي عبد الوهاب وعانقه وقبله قائلاً: لقد كان رجلاً عظيماً حقاً. كنت متصرفاً في بعض الألوية التابعة لولاية الشام وعزلتني الدولة لأمر بدر منّي، لكنه أبرق إلى استانبول متحملاً التبعة هو نفسه وطالباً ابقائي في منصبي، فبقيت...

وعرف محمود صبحي رئيس اللجنة الاصلاحية ووكيل الوالي ناظم باشا ـ وهو غير الفريق حسين ناظم باشا الشهير الذي صار والي بغداد بعد ذلك. فقد عيّن كاتباً بدائرة الولاية في زمانه وعهدت إليه مباشرة الأمور السرية. وكان ناظم باشا هذا من رجالات الدولة القديرين، أصبح بعد ذلك وزيراً للعدل في استانبول.

وخلفه في ولاية بغداد نجم الدين الملا، وكان معمّماً في نحو الأربعين من عمره (1908).

ولم يطل أمد ولايته أكثر من أربعة أشهر، إذ استدعي إلى

العاصمة التركية وقلّد وزارة العدل. واستمرّ الدفتري يعمل كاتباً سرياً له في الولاية.

قال الأستاذ الدفتري: استدعاني نجم الدين بك ذات يوم إلى غرفته ودفع إليّ برقية رمزية واردة من استانبول وأخرج مفتاح الرمز من الصندوق الحديد وكلفني أن أحل رموزها على مكتب في زاوية الغرفة. ولم أكد أجلس وأشرع بالعمل حتى دخل السكرتير وقال للوالي إن قنصل روسية القيصرية العام يريد مواجهته، فأذن له بالدخول. وقمت آنئذٍ أخرج بصمت، لكن نجم الدين بك أشار إليّ بالجلوس ومواصلة العمل.

دخل القنصل، وكان معروفاً بالشدة والشراسة، فكلم الوالي بشأن من الشؤون، وإذا به يضرب على المنضدة بجمع كفّه ويصرخ قائلاً: إنني ممثل صاحب الجلالة القيصر ولا أرضى ألا باجابة مطلبي!... لكن تلك الوسيلة لم تخف الوالي، فضرب هو أيضاً بشدة على المنضدة ورفع صوته يقول: وأنا ممثل السلطان الأعظم في هذا البلد ولا أسمح لأحد أن يتكلم على هذا المنوال بحضوري. وكان هذا الجواب كافياً لردع القنصل الذي قال بصوت هادىء: الآن نستطيع أن نتفاهم...

وكانت صلة الدفتري بسليمان نظيف الوالي الأديب وثيقة، بدأت في بغداد وتطورت في الآستانة حتى أصبحت صداقة

ومودة. جاء هذا الوالي إلى بغداد في أثناء الحرب العامة، ولما استقبل الموظفين والمدرسين للتعرف عليهم، استرعى نظره مدرس الأدب التركي الشاب فاستبقاه لديه وأخذ يباحثه في الشؤون الأدبية. وكان الوالي يجلس للناس في صباح الجمعة فيحضر لديه أشراف بغداد وعلماؤها وأدباؤها، وفي مقدمتهم جميل صدقي الزهاوي، وقناصل الدول وغيرهم. وفي أحد أيام الجمعة، والمجلس غاصّ بالزائرين، دخل السكرتير وأسرّ في أذن الوالي أن الرجل قد أحضر. فقام سليمان نظيف بك إلى الغرفة المجاورة وأمر بضرب الرجل ضرباً مبرحاً. ولما عاد إلى مجلسه اتجهت إليه الأنظار متسائلة فقال: إن السلطة العسكرية قد أمرت بالإخبار عن الحبوب والبقول التي لدى الأهلين لتموين الجيش، وهذا الرجل على ما علمت دأبه ترصّد الفقراء والأرامل وذوي الحاجة ورفع الأخبار عمّا قد يكون في حوزتهم من قمح وأرزّ قليل لمعيشتهم، فلم أر بداً من تأديبه على الوجه الذي رأيتم...

هذا غيض من فيض دكريات الدفتري وراواياته، ولو شئنا تدوينها جميعاً لملأنا مجلدات ضخمة.

الوالي عبد الرحمٰن باشا

من ولاة بغداد الذين سمع بهم محمود صبحي الدفتري وحدّثنا عنهم: عبد الرحمٰن باشا ابن الحاج علي باشا الذي تقلد الولاية مرتين سنة 1875 ـ 1877 و 1879 ـ 1881، وكان صدراً أعظم على عهد السلطان عبد الحميد الثاني. كان عبد الرحمٰن باشا معروفاً بالحرص على التقاليد الرسميّة (البروتوكول)، حتى أنه كان يدعو ابنه حين يتحدّث عنه: عارف حكمت باشا حضرتلري، ولا يقول: ولدي عارف!. وكان ابنه هذا قد تقلد وزارة العدلية العثمانية واقترن بالأميرة نائلة ابنة السلطان عبد الحميد سنة 1905.

وكان ممتاز الدفتري (خال محمود صبحي) قد أتمّ دراسته الاعدادية في استانبول وعيّن مدير ناحية في ولاية أدرنة، وكان واليها آنذاك عبد الرحمٰن باشا والي بغداد سابقاً. وذهب مدير الناحية ليسلّم على الوالي، فسأله عن اسمه، فقال: ممتاز البغدادي. ولمّا سمع الباشا باسم بغداد، هاجته الذكريات إليها، فأدنى الشاب منه وقال له:

ـ أنت من بغداد؟. ومن أيّ محلّاتها؟.

ـ من محلة الحيدرخانة، يا سيدي الباشا.

ـ وهل داركم قريبة من دار إبراهيم افندي (الدفتري) رئيس البلدية؟.

ـ إن إبراهيم أفندي جدّي، يا سيدي الباشا. ولما علم الوالي بذلك ربت على كتف ممتاز أفندي وأجلسه إلى جانبه ولاطفه، وقال للحاضرين: إنّ هذا الشابّ حفيد صديقي إبراهيم أفندي رئيس بلدية بغداد. وأنا لا أذكر بغداد إلا ذكرت إبراهيم أفندي، ولا أسمع اسم إبراهيم، أيّاً كان، إلا ذكرت بغداد!.

السيد سلمان النقيب
والوالي مصطفى عاصم باشا

حدثني محمود صبحي الدفتري أن السيد سلمان الكيلاني نقيب الأشراف عاد من استانبول سنة 1887 بعد رحلة نال فيها رعاية السلطان عبد الحميد الثاني وألطافه وحصل على أوسمة رفيعة لنفسه وأبناء أسرته. فأصبحت له مكانة مرموقة لدى الوالي والموظفين الأتراك فضلاً عن مقامه لدى الأهلين. وقدم بغداد آنذاك والٍ جديد قويّ الشكيمة، معتدّ بنفسه هو المشير مصطفى عاصم باشا. وسرعان ما حدث خلاف بين الوالي والنقيب، وتدخل الوالي في شؤون الأوقاف القادرية وأراد الوقيعة بالسيد سلمان وتقليص نفوذه، فقام هذا بالتشنيع عليه وشكايته إلى الباب العالي في استانبول.

وحلّ شهر رمضان، وكان مجلس إدارة الولاية يجتمع في أثنائه ليلاً في السراي المطلّ على نهر دجلة. وكان أعضاء المجلس يتواردون على السراي بعد الإفطار، منهم في عرباتهم

التي تجرّها الخيل، ومنهم على أقدامهم يتقدمهم خادم يحمل مصباحاً لينير الأزقة المظلمة. وكان أبناء الأشراف والموظفون يأتون إلى السراي في ليالي اجتماع المجلس، فيجلسون على نهر دجلة يتسامرون ويحتسون القهوة ويتسقّطون الأخبار الرسمية وشؤون الولاية. والتأم المجلس ذات مساء، وجاء مصطفى عاصم باشا يتميّز غيظاً بعد أن سمع بشكاية النقيب عليه، ودخل وعيناه تقدحان شرراً وقال: أين النقيب، لأهيّننه الليلة وأعرّفه منزلته وأضعه في موضعه فلا يتطاول بعد هذا على مقام الولاية...

وكان السيد سلمان، وهو من أعضاء المجلس. قد تأخّر في المجيء، فخرج إسماعيل الدفتري (جدّ محمود صبحي) من قاعة الجلسة ونادى ابنه فؤاد، وكان حاضراً في السراي، وأفهمه الموقف وقال له: إذا جاء السيد سلمان فكلّمه متلطّفاً وحل دون دخوله إلى القاعة. وأوصاه أن لا يخبره بما دار في المجلس لأنه رجل جريء مقدام ولا يتورّع عن مجابهة الوالي وتحدّيه علناً، وتكون آنذاك الطامّة الكبرى.

وقف فؤاد الدفتري في باب السراي. ولم تمض دقائق حتى قدمت عربة النقيب، فترجّل بأبّهة ووقار، وأسرع فؤاد فحيّاه باحترام فائق وأخذ بيده وقال له: سيدي النقيب، ألا تتفضل فتشرّفنا هنيهة وتشرب القهوة معنا؟. قال النقيب: ولكن

المجلس قد اجتمع. فلاطفه فؤاد وقال له: إن الجلسة تنتهي قريباً ولا يليق بك أن تحضر أواخرها. وما زال به حتى مضى إلى مقاعد الأشراف والشبّان على شاطىء النهر، ولعّله علم أن شيئاً ما قد حدث فالأفضل أن لا يحضر الاجتماع.

واستمر النزاع بين الوالي والنقيب حتى ابتليت بغداد بوباء الهيضة في ايلول 1889 وتوفي بها حبر اليهود الحاخام عبد الله إبراهيم سوميخ، فدفن في مرقد يوشع الكاهن الأكبر بجانب الكرخ. وأمر الوالي بإخراج جثّته وإعادة دفنها خارج السور، فهاج اليهود وشكوا الأمر إلى السلطان.

وتفاقمت القضية، فاستدعى الصدر الأعظم الوالي على آلة البرق وكلّمه بحضور السلطان يسأله عن الموضوع، فتكلم مصطفى عاصم باشا بحدّة. قال له الصدر الأعظم: إن مولانا أمير المؤمنين حاضر يستمع إلى إفادتك، فقال الوالي: أنا خادم مولانا السلطان وألثم قدميه. لكنه لم يخفّف من غلوائه، فأمر السلطان بنقله من ولاية بغداد فوراً إلى ولاية أطنة، وهي من ولايات الصنف الثالث.

غادر المشير مصطفى عاصم باشا بغداد بعد أيام قاصداً الأناضول عن طريق عنة وحديثة وحلب. ورقّ له قلب السلطان فأمر بنقله والياً للشام بدلاً من أطنة، والشام مثل بغداد من

ولايات الصنف الأول. ووردت البرقية إلى بغداد بعد مغادرة مصطفى عاصم إياها، فاستدعي أحد الضباط وكلّف باللحاق به وتبليغه الأمر السلطاني في الطريق.

امتطى الضابط صهوة جواده وقطع المنازل بلا هوادة ولا راحة، حتى أدرك الوالي المنقول في حديثة، فتبلّغ بالأمر مسروراً وأنعم على الضابط بهدايا ثمينة. ومضى إلى دمشق مركز ولايته الجديدة.

وقد توفي مصطفى عاصم باشا بعد سنتين (1891).

رئيس الهيئة الاصلاحية

كان ناظم باشا رئيس الهيئة الاصلاحية من رجال الدولة التركية البارزين بالرغم من صغر سنّه، إذ لم يكن يتجاوز عمره حين قدم العراق 45 عاماً. وقد اقترح تأسيس مدرسة حقوق ومدارس أخرى، وطلب عزل واليي الموصل والبصرة ونقل والي بغداد، فنفذت مقترحاته جميعاً.

وكان والي البصرة آنذاك ينتمي إلى أسرة مرموقة ترتبط بوشيجة المصاهرة مع الأسرة العثمانية المالكة، وكان أبوه من الصدور العظام. لكن هذا الوالي الشاب كان مرتشياً لا يعبأ بالقانون ولا يخاف العقاب. وكانت زوجته فرنسية. وقد استطاع خلال أشهر قليلة من مكوثه في البصرة أن يجمع 25 ألف ليرة ذهب. واقترح رئيس الهيئة الاصلاحية عزله، فعزل بالرغم من نفوذ عائلته.

قال محمود صبحي الدفتري: ورد أمر عزل الوالي من استانبول برقياً عشيّة عيد جلوس السلطان عبد الحميد، فذهب

مدير البرق إليه ليبلغه بالعزل، فقال له الوالي: إن غداً عيد الدولة ويجب عليّ أن أحضر مراسيم الاحتفال باسم السلطان، فأرجو أن تحتفظ بالبرقية إلى ظهر الغد فتبلّغني بها بعد انتهاء التشريفات. ووافق مدير البرق على ذلك.

وأسرع الوالي المعزول فعمل الترتيبات اللازمة للسفر على باخرة انكليزية تقلع من الميناء ظهيرة الغد. وفي الصباح أرسل زوجته وأمتعته والليرات الذهبية الكثيرة سراً إلى الباخرة، أما هو فلبس بزّته الرسمية وتقلد أوسمته وترأس احتفالات عيد الجلوس. وتقبل تهانيء الموظفين والأهلين في السراي، ثم مضى إلى الميناء لتحية القوة التركية البحرية. ولما انتهى من ذلك استقل زورق الولاية البخاري مع مرافقيه وحاشيته، وبدلاً من العودة إلى البصرة أمر الملاّح بالتوجّه إلى الباخرة البريطانية. وقال لأصحابه وهو يهمّ بالصعود إليها: إنني قد عزلت من الولاية، وفي وسعكم تسلّم البرقية من مدير البرق. فأستودعكم الله، فإنني مسافر على هذه الباخرة عائداً إلى بلادي.

ولكنه لم يرجع إلى استانبول، بل ذهب إلى مصر عن طريق بمبي، وأقام فيها متمتعاً بثروته المحرّمة.

عودة إلى عبد الحق حامد
وأدباء الترك

حدثني محمود صبحي الدفتري عن أوّل لقاء جمعه بعبد الحق حامد فقال: وصلت استانبول لأوّل مرة في نيسان 1917. ومرّت أيام قليلة، وفيما أنا سائر في الشارع بصحبة فؤاد الجيبه جي النائب في مجلس المبعوثين، إذا به يجرّني من يدي جراً ويقول: انظر هناك، هذا عبد الحق حامد شاعر الترك يأتي قبالتنا!. وتقدم منا عبد الحق ومعه سليمان نظيف بك والي بغداد الأسبق، وسرعان ما عرّفني بالشاعر الشيخ. ومدّ يده يصافحني فأخذتها لأقبّلها، لكنه سحبها. فقال له الجيبه جي: دعه يقبّل يدك، يا استاذ، فهو هائم بك، عاشق لأدبك، وطالما حدّثنا عنك في بغداد، وقرأ لنا شعرك، وترك دروسه، وهو طالب، ليكبّ على مطالعة «مقبر» و «طارق»... ودعاني عبد الحق حامد إلى زيارته في منزله فذهبت إليه مع سليمان نظيف. ولمّا خرجنا من لدنه، وقف الشاعر الكبير ونحن نودّعه عند الباب، ولم يتورّع عن إلباسي معطفي لفرط أدبه ومجاملته.

فأدرت له ظهري ورفعت كتفي وقلت: تفضل، يا أستاذ، وألبسني معطفي كما تشاء. إنّ أولادي وأحفادي سيفتخرون بعد أعوام مديدة ويقولون: إن عبد الحق حامد قد ألبس أبانا معطفه!.

وقد كلف الشاعر الكبير محمود صبحي بنسخ أشعار له. فنسخها بعناية وأعاد الأشعار المنسوخة بخطه محتفظاً بالأصل الذي بخط عبد الحق تذكاراً.

* * *

كان فائق عالي شاعر الجمال، يهيم به ويتحسّس ويهشّ له ويتحمس. كان مأخوذاً بجمال الطبيعة، وجمال النفوس، وجمال الوجوه، فلم يرَ غادة جميلة إلاّ نظم فيها شعراً. قال محمود صبحي الدفتري: كنت جالساً واياه ذات يوم في مقهى طوقاتليان، أرقى أندية استانبول، فمرّت الآنسة سيسيل وأمّها. والآنسة سيسيل فتاة رائعة الجمال لم يخلق الله لها مثيلاً، ولدت في بغداد لأم فرنسية وأب مجري، فلما احتلّ الانكليز بغداد هربت عائلتها إلى العاصمة التركية خوفاً من الاعتقال. ودعوتها ووالدتها إلى الجلوس، وقدّمتها إلى الأديب التركي الذي بهر حسنها أنفاسه، وقلت له: ألا تنظم فيها شعراً؟. قال: أمهلني حتى أستردّ نفسي.

وفي اليوم التالي نظم فائق عالي قصيدة من أروع قصائده تغنىٰ فيها بجمال الغادة البغدادية وفتنتها، وقرنها بجمال دجلة الخالد وسماء العراق الصافية الزرقاء وبلاد السحر والروعة التي ألهمت من قبل فضولي وسائر الشعراء. وترجم الدفتري معاني القصيدة للكاعب الحسناء فسرّت بها أيّما سرور. وقال عالي له ضاحكاً: أنا أتعب لأنظم الشعر وأنت تقبض الجائزة.

ومرّت أعوام طويلة، وعادت الفتاة إلى بغداد وتزوّجت، ورحلت إلى فرنسة حيث اتخذت مسكنها. وبعد خمسين سنة تلقى الدفتري رسالة منها من باريس تطلب قصيدة الشاعر التركي الذي تغزّل بها قديماً.

ولعلّها تذكرت صباها الذاهب فتأسّت بصاحبة الشاعر الفرنسيّ رونسار، تلك الغادة اللعوب المَدلّلة التي خاطبها قائلاً:

«حينما تبلغين من العمر عتيّاً، وأنت جالسة تصطلين بالنار مساءً، تنسجين وتحوكين على ضوء الشموع. ستقولين إذ تنشدين شعري في زهو وخيلاء: إنّ رونسار قد أشاد بذكري يوم كنت رائعة الجمال».

بغداد في العهد العثماني الأخير

حدثني محمود صبحي الدفتري أنه يذكر، وهو غلام يافع، أنّ خاله رفعت الجادرجي، وكان رئيس بلدية بغداد آنذاك، قرّر أن يتفقّد البلدة ليلاً. فاستدعى مساعده وعدداً من موظفي البلدية والمراقبين والحرّاس فاجتمعوا في داره في الليلة المقرّرة. ولما اقترب منتصف الليل خرج الموكب يتقدمه حملة المشاعل والفوانيس النفطية وسار في الطرق الملتوية والأزقّة الضيّقة المملوءة بالحفر والأخاديد. كانت بغداد في مطلع القرن العشرين تهجع في ظلام يكاد يكون دامساً، لا يشقه إلا ضوء ضئيل من الفوانيس التي ثبتت على جدران المنازل في مسافات متباعدة. وكان المستخدمون المعنيّون لهذا الغرض يخرجون كلّ مساء حاملين السلالم ووعاء النفط فيمرّون بالأزقة ويضعون النفط في الفوانيس ويوقدونها.

وكان نورها من الخفوت بحيث يضرب البغداديون بها المثل قائلين: مثل فوانيس البلدية لا تضيء إلاّ نفسها.

ولم يكن في بغداد أي شارع يستحقّ هذا الاسم، إذ ان أول شارع قد شقّ خلال الحرب العظمى بأمر الوالي خليل باشا وافتتحه رئيس البلدية رؤوف الجادرجي (ابن رفعت الجادرجي) في 23 تموز 1916، وهو الذي سمّي في بادىء الأمر جادّة خليل باشا وعرف بعد ذلك باسم شارع الرشيد. وكان أهل بغداد يعودون إلى دورهم قبل حلول الظلام، فإذا اضطر أحدهم إلى الخروج ليلاً لشأن مهم، حمل الفانوس بيده أو حمله أمامه بعض خدمه إذا كان من الموسرين.

وسار رفعت الجادرجي في الأزقة تتبعه حاشيته، فتفقد الفوانيس النفطية التي لم تكن تضيىء سوى نفسها ـ كما كان يقال ـ ولاحظ الحرّاس الذين كانوا يسهرون في منعطفات الطرق، ودوريّات «البوليس» القليلة التي كانت تعقّب السرّاق والمجرمين. ثم عاد إلى داره في الهزيع الأخير من الليل.

وظلّت جولة رئيس البلدية حديث العامّ والخاصّ أياماً طويلة وعدّت حدثاً ذا شأن قليل النظير!.

وقد وصف بغداد ذلك العهد الشاعر عبد الحسين الأزري فقال:

يـريبـك مـن بغـداد ضيـق دروبهـا

كـأنّـك تمشـي فـي دهـاليـز مـن غـار

وتـزداد منهـا فـي دجـى الليـل ريبـة
فلسـت تـرى مـن مـأمـن خـارج الـدار
مصـابيحهـا تـرنـو إليـك كـأنهـا
عيـون سنـانيـر يفتّشـن عـن فـار

وقال معروف الرصافي:

أيـا سـائـلاً عنّـا ببغـداد إنّنـا
بهـائـم فـي بغـداد أعـوزهـا النّبـتُ
علـت أمـة الغـرب السمـاء وأشـرفـت
علينـا فَظَلْنَـا ننظـر القـوم مـن تحـت
فنحـن أنـاس لـم نـزل فـي بَطَـالـة
كـأنّـا يهـود كـلّ أيّـامنـا سبـت

وقال أيضاً يصف الشارع الكبير ببغداد:

نَكِّـبِ الشـاعـر الكبيـر ببغـداد (م)
ولا تمـشِ فيـه إلاّ اضطـرارا
شـارع إن ركبـت متنيـه يـومـاً
تلـقَ فيـه السهـول والأوعـارا
تتـرامـى سنـابـك الخيـل فيـه
إن تقحّمـن وَعْثَـه والخَبَـارا
فهي تحثو التراب فيه على الأوجه (م)
حثـواً وتقـذف الأحجـارا...

الدفتري واوستن ايستوود

كان المستر اوستن إيستوود من البريطانيين المعروفين في المحافل الاجتماعية في بغداد. جاء إلى العراق في الحملة العسكرية خلال الحرب العظمى الأولى، ثم انصرف بعد الهدنة إلى الأعمال الاقتصادية، فأسس أول محلج آلي حديث للقطن سنة 1920، وشجّع زراعة هذا المنتوج بمنح القروض للزراع وإيجاد أسواق خارجية للتصريف.

وكان رجلاً دقيقاً غريب الأطوار شديد الاعتزاز بنفسه، وكان صديقاً حميماً لمحمود صبحي الدفتري الذي يشبهه في الدقة ومراعاة أصول «الأتيكيت» وحب المناقشة والكلام.

كيف تعارف الصديقان؟. كان محمود صبحي يجلس لأصدقائه ومحبيه في سنة 1919 و 1920 في الساحة المقابلة لدار أبيه في الزقاق المسمّى باسم جده «إبراهيم أفندي» في الحيدرخانة. فكان الخدم يرشّون الساحة بالماء عصر أيام الجمعة في الصيف ويضعون فيها الكراسي والموائد، ويهيئون القهوة والشاي للزوار من «الهاي لايف» في المجتمع العراقي.

ولما كان الزقاق ضيقاً لا يتسع للمارّة فقد كان أحد الخدم يقف في منعطف الطريق ويرجو الناس أن يتحولوا في سيرهم إلى عطفة أخرى.

وحدث أن أرسل اوستن ايستوود بعض خدمه في مهمة خاصة، فلما جاء ليمرّ بزقاق إبراهيم أفندي رجاه خادم محمود صبحي أن يمضي في طريق آخر.

ولم يكن من الرجل إلا أن عاد إلى سيده الانكليزي وأخبره أن أحدهم منعه من المرور في الطريق ليصل إلى المحل الذي يبغيه. وأخذت المستر ايستوود العزّة وصاح: كيف يجوز لأحد أن يقطع الطريق على المارة في بغداد تحت الحكم البريطاني العادل؟. وأخذ عصاه واعتمر قبعته ومضى يتقدمه خادمه ليؤدب المذنبين.

وحينما بلغ الزقاق المقصود وهو يحتدم غيظاً قوبل باحترام وأخذ إلى صاحب الديوان المعقود في الطريق الذي رحّب به وأجلسه في صدر المجلس. وتم التعارف على قدح من القهوة فعقدت أواصر الصداقة بين «الجنتلمان» الانكليزي والوجيه العراقي.

وكثيراً ما كان الخصام أوّل خطوة للتعارف والسّلام.

قصص قديمة من الحياة

من القصص التي يرويها محمود صبحي الدفتري عن أشراف بغداد القدماء أن أحدهم، وكان من آل الربيعي الأسرة المشهورة، عمل مديراً للواردات في ولاية البصرة أعواماً طويلة. ولما اعتزل الخدمة وعاد إلى بغداد، دأب على الذهاب إلى الفيحاء كلّ خريف حين يطيب الهواء لقضاء أسابيع مع أصدقائه وخلاّنه.

واصطحب معه في إحدى السنين الفكه الظريف الملا عبد الله الخياط لينادمه في الطريق. ولما وصلا إلى البصرة ركبا زورقاً في العشار للمضيّ إلى المدينة. وكان الوقت مساءاً والظلال تنشر جناحها على الماء، والوجيه البغدادي ملتفّ بعباءته لا يكاد يبين وجهه، يستمع بلذة إلى لطائف رفيقه وقصصه. وظهر فجأة على الشاطىء أحد «القولجية»، وهو شرطي مكافحة التهريب، فنادى على القارب بالوقوف. لكن الربيعي أوعز إلى النوتي بمواصلة التجذيف وعدم الاهتمام بايعاز القولجي. وغضب هذا ورفع بندقيته وصاح بأعلى صوته: قفوا

حالاً وإلاّ رميتكم!. فلم يكن من السريّ، الذي عرف في القولجي خادماً له كان قد أخذه معه إلى البصرة وعينه في وظيفته، إلاّ أن رفع رأسه ببطء ووقار. وعرفه المأمور فارتبك وقال: عفواً، أقبّل يديك وقدميك. . .

فقال الملا، وكان قد خاف أن يرمى برصاصة: يا سيدي، ما دام لديك مثل هذا الجواز فلم لم ترفع رأسك فوراً لتنقذنا من صولة هذا الجبّار!.

* * *

حدّثني محمود صبحي الدفتري أن بعض الأسر الموصلية المعروفة ـ ولعلها الأسرة الجليلية أو العمرية ـ اشترت في اوائل القرن التاسع عشر مملوكاً كرجياً وربّته على عادة ذلك الزمان. وسافر ربّ الأسرة إلى استانبول فاصطحب مملوكه، وكان غلاماً يافعاً، وأدخله في بعض المعاهد العسكرية، ثم عاد إلى الموصل تاركاً اياه في العاصمة العثمانية.

وكان المملوك فتى ذكياً تفوّق في دروسه وملك فنون الفروسية. ومضت عدة سنين، وقد انخرط في سلك موظفي الدولة ومنح رتبة البكوية، فأرسل في مهمة إلى البلد الذي نشأ فيه. وجاء إلى دار سيده السابق فقبّل يديه ووقف أمامه باحترام رافضاً أن يجلس أو يدخل إلى الديوان. ثم نزع ملابسه الرسمية

وارتدى ملابس الخدم ومضى إلى المطبخ يلاطف العبيد والجواري ويساعدهم في أعمالهم المنزلية.



الجالسون على الأرض: رفائيل بطي ـ توفيق السمعاني. القاعدون على الكراسي: المرحوم عبد العزيز الثعالبي معروف. جميل. عطا الخطيب. الواقفون: علي محمود الشيخ علي ـ بهاء الدين النقشبندي ـ جميل المدفعي ـ طه الراوي ـ موفق الآلوسي ـ رؤوف الكبيسي ـ عبد المسيح وزير ـ إبراهيم كامل ـ صاحب الدعوة السيد محمود صبحي الدفتري ـ صاحب الكلمة أحمد حامد الصراف ـ طه الهاشمي ـ مزاحم الباجچي ـ علي ممتاز، عبد العزيز المظفر ـ عبد الله الشواف ـ بهجت الاثري.

أقام محمود صبحي الدفتري سنة 1928 مأدبة تكريماً للشاعرين جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي حضرها نخبة من رجال الفضل والأدب.

محمود صبحي والأدباء

شجرت نفرة بين الشاعرين جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي فدعاهما محمود صبحي الدفتري إلى حفلة عشاء في داره ودعا معهما نخبة من رجال البلد وأدبائه، وذلك في 8 كانون الأول 1928. وكان ذلك حدثاً أدبياً من أحداث بغداد، ألقى فيه الزهاوي قصيدة قال فيها:

جمـــع الأديـــب الحـــرّ صبحـــي شملنـــا
فـــي داره، أكـــرم بهـــا مـــن دار!.
لـــو لـــم تكـــن لـــي لحيـــة وســـدارة
لحسبتنـــي طيـــراً مـــن الأطيـــار

أما الرصافي فألقى قصيدة عنوانها «غادة الانتداب»، وهي قصيدة سياسية جريئة وجم لها الحاضرون الذين جاؤوا للاستمتاع بمحفل أدبيّ وليس لمناقشة السياسة في تلك الظروف العصبية. قال الرصافي:

دع مـــزعـــج اللـــوم وخَـــلِّ العتـــابْ
واسمـــع إلـــى الأمـــر العجيـــب العُجـــاب

وعرض بدار الاعتماد في جانب الكرخ ونعتها بالنعوت الشنيعة وشبّه الحكومة بفتاة موقرة بالحِلَى، مبرقعة بالنقاب، مخضوبة الكفين، تمشي مشية الدل والخيلاء وتخلب الناس بوضعها المنكر...

قـــال جليســـي يـــوم مـــرّت بنـــا:
مـــن هـــذه الغـــادة ذات الحجـــاب؟.

قلـــت لـــه: تلـــك لأوطـــاننـــا
حكـــومـــة جـــاد بهـــا الانتـــداب

أخبرني مصطفى علي أنه كان مع نفر من أصدقاء الرصافي ومريديه ينتظرونه في داره.

فلمّا عاد من حفلة الدفتري وقصّ عليهم ما جرى، سألوه أن يقرأ لهم قصيدته، فقرأها، وساد الجمع الوجوم، فلم ينطقوا ببنت شفة.

* * *

كـان مجلـس الجمعـة يعـجّ بـرجـال السيـاسـة والإدارة والأدب، وكان صاحبه محمود صبحي الدفتري لا يحبّ أن تحتدم فيه المجادلات السياسية لأنّ زوّاره ينتمون إلى الأحزاب والفئات المختلفة، فلا يريد أن يكون «صالونه» محل مناقشة وعـراك. فـإذا جـرى البحـث فـي المـواضيـع العـامـة وتطـرّق

الحاضرون إلى الشؤون السياسية، أسرع فشرع يقصّ قصة ممتعة من ذكريات استانبول، أو قرأ شعراً تركياً قديماً يفسّره ويحلّله، أو شغل المجلس بقططه وأخبارها الطريفة. وفي ذات مرّة رأى لجاجاً من أحدهم في المناقشة، فلم يكن منه إلا أن صاح: أين فرج؟. ابحثوا عن فرج!... واستدعى خدمه وصرخ بهم، والحاضرون يتساءلون من هو فرج وما شأنه؟. ولم تمض لحظات حتى دخل عوني يتقدمه هرّ كبير يسير متمهلاً، وكأنه قائد منصور يلقي على الجمع نظرات متعالية.

وضحك الحاضرون ونسوا المناقشة السياسية. وقال أحد شيوخ العشائر بلهجته البدوية: أهذا فرج؟. ظننت أنه مدير ناحية...

وقد رأينا إبراهيم صالح شكر يلازم مجلس الدفتري ويتصدّر حلقة الأدب في أحد جوانبه، مطرق الرأس، قليل الكلام. أما أحمد حامد الصراف فكان يصول ويجول، يرتّل الشعر ويروي النوادر واللطائف ويمزج العربية بالتركية والفارسية ويرطن بالانكليزية والفرنسية. وقد حضر صاحب المجلس حلقتنا في أحد الأيام وأخذ يحدثنا حديثاً طويلاً والصراف لا يستطيع السكوت فيقاطع كلامه مرة بعد أخرى.

قال الدفتري: يا أحمد، أعرني سمعك دقائق معدودات

ولا تقاطعني ثم تكلم كما تشاء. وسكت الصراف وتدفق الدفتري كالسيل الجارف، حتى إذا ما فرغ من حديثه قام منصرفاً إلى حلقة أخرى وقال: تكلم الآن، يا أحمد، كما تريد.

ودعا الدفتري صديقه الدكتور رضا توفيق الأديب الوزير التركي إلى زيارة بغداد سنة 1940، فلبث في ضيافة الحكومة العراقية أشهراً. وكان رضا توفيق، كالدفتري والصرّاف، مولعاً بكثرة الكلام لا ينقطع سيل حديثه حتى ضاق به جلساؤه ذرعاً وطووا عنه كشحاً، إلاّ نفر مثلنا من الشباب ظلّوا يزورونه ويصغون إليه باعجاب واحترام، وهو يتحدّث بلغات شتى وعن مواضيع مختلفة من الأدب والموسيقى والتأريخ إلى الطب والسياسة والآثار...

محمود صبحي واستانبول

لعلّ محمود صبحي الدفتري قد أحبّ في حياته شيئين كما أحبّهما من قبله أديب فرنسة الكبيرة پيير لوتي: تركيا والقطط.

أحب لوتي استانبول السلاطين، فلبس القفطان واعتمر العمامة ودخّن النارجيلة وابتنى في داره في فرنسة مسجداً بمحرابه وسجاجيده وخطوطه العربية. وأحاط نفسه بالقطط في داره وفي السفن الحربية التي خدم فيها ضابطاً بحرياً. وكتب أجمل الصفحات عن استانبول وأحيائها القديمة وفتياتها المحجّبات السجينات في قصور الحريم.

والدفتري ملأ داره وحديقته بعشرات القطط وعيّن لها خادماً خاصاً. وكان يرعاها ويدلّلها ويأخذها بنفسه إلى المستشفى البيطري إذا مرضت. وكان يبيح لها دخول «صالونه» والتنقل بين أرجل ضيوفه والجلوس إلى جانبهم على الأرائك الوثيرة.

أما حبّه لتركية فنشأ عن نشأته في العهد العثماني وثقافته

التركية الأصيلة وقضائه سنوات في استانبول في نهاية الحرب العظمى الأولى وفي أعقابها. وقد تعرف إلى كبار الأدباء في ذلك العهد، وظل يردد أدبهم وادب السابقين لهم إلى آخر حياته. سكر بأشعار فضولي وباقي ونفعي ونديم وعبد الحق حامد وسليمان نظيف. وزاره في بغداد المؤرخ والوزير الشهير فؤاد كوپرولو فأعجب بأدبه وفضله، وحمل الحكومة العراقية، وهو وزير العدلية، على دعوة الأديب الشاعر الدكتور رضا توفيق إلى بغداد، وهو المغضوب عليه من الحكومة الكمالية، ضيفاً مكرماً. وقد مدح الدفتري بقصيدة تركية من الطراز الكلاسيكي الأصيل. ولولا أن العراق قد خرج عن دائرة الثقافة التركية بعد الحرب العظمى وأن مصطفى كمال أتاتورك قد غيّر الحروف العربية واصطنع الثقافة اللاتينية فقطع الصلة بتركية العثمانية القديمة وآدابها لكان الدفتري في عداد الأدباء الكلاسيكيين الأتراك.

وقد زار اسطنبول بعد ذلك مراراً فذهب إلى مكتباتها القديمة باحثاً عن الكتب الصفر ذات الحروف العربية. إن اسطنبول التي أحبها، كما أحبها پيير لوتي من قبله، هي عاصمة السلاطين التي عرفت باسم «فَرُوق» لتفريقها بين البّر والبحر، بين أوروبا وآسيا. لقد تغيرت معالمها بعد نقل العاصمة إلى أنقرة، فلم يبق من مشاهدها الأصيلة سوى الأحياء الشعبية

والمساجد والمقابر والقصور السلطانية التي أصبحت متاحف.

تلك اسطنبول التي قال فيها أحمد شوقي يوم خلع السلطان عبد الحميد:

سـل يلـديـزاً ذات القصـور
هـل جـاءهـا نبـأ البـدور؟.
لـو تستطيـع اجـابـةً
لبّتـك بـالـدمـع الغـزيـر
أخنـى عليهـا مـا أنـاخ
علـى الخـورنـق والسـديـر
ذهـب الجميـع فـلا القصـور
تـرى ولا أهـل القصـور...

تلك اسطنبول التي ودعها وليّ الدين يكن يوم نفاه عنها السلطان عبد الحميد:

وداعـاً منـك، يـا وطنـي، وداعـا
أرى مـن بعـده أن لا اجتمـاعـا

وقال أيضاً:

ودّع «فـروق» لقـد أجـدّ فـراق
مـاذا تطيـق، هـل الـوداع يطـاق؟

وقال يبكيها:

نفـــدت دمـــوعـــي والأســـى لا ينفـــد
اليـــوم يبكينـــي ويبكينـــي الغـــد...
أفـــروق، مـــالـــك فـــي البـــريّـــة منجـــد
كـــلا ولا لـــي فـــي البـــريـــة منجـــد
فستظلميـــن كمـــا ظُلْمِـــتُ بمعشـــر
ســـادوا وأكثـــرهـــم بـــأرضـــك أعبـــد

وسوف يبقى أدب پيير لوتي وذكريات الدفتري صورة حية لعالم مضى بخيره وشرّه، بعظمته وبؤسه، بجماله الرومانتيكي وخياله المبدع القديم.

*

توفي محمود صبحي الدفتري في بغداد في 7 كانون الأول 1979.

محمود صبحي الدفتري
في أيامه الأخيرة

على أثر وفاة الدفتري كتبت إليّ ابنته السيدة لميس زوجة خيري العمري في رسالة لها مؤرخة 18 حزيران 1980 تقول:

«... لقد عاش والدي تسعين عاماً ناقصاً 7 أيام: فقد ولد في بغداد في 14 كانون الأول 1889 وتوفي في 7 كانون الأول 1979. وبقي إلى آخر يوم من حياته قويّ الملاحظة، سريع النكتة، راوياً للشعر. ولا أنسى أنني سألته قبل وفاته بأيام معدودة عن الشعر الذي نظمه بحقه الشاعر التركي المعروف رضا توفيق، وكنت أعتقد أنه سيذكر لي أبياتاً قليلة منه، وإذا به ينبري وهو في فراشه بانشاد ما يقرب من العشرين بيتاً.

«لقد رحل جميع أصدقائه قبله وعاش سنواته الأخيرة يعيد (ذكرياته) عنهم ويتسلى بها. ولم ينس ولا واحداً منهم، وكنت أنت أحدهم.

«في مساء ليلة وفاته عقب العملية الجراحية التي أجريت

له كان يبدو بصحة جيدة، وعاده الدكتور هادي السبّاك الجرّاح الذي أجرى العملية، فقال له والدي: أتمنّى أن تكون الصديق الدائم المستديم، وأتمنّى ألاّ أشفى حتى تزورني يومياً، لأنني لو شفيت فستكفّ عن زيارتي.

«وقبلها بيومين كلّم ابنتي صَبُوح بالتلفون وقال لها مشجّعاً: إنني بحالة جيدة، وبعد أيام قليلة سأخرج من المستشفى وأشتري لك حاجيات كثيرة...».

ويمكننا القول إنه بانتقال محمود صبحي إلى الرفيق الأعلى فصمت آخر صلة للعراق بتركية القديمة، بل آخر صلة بعراق الأمس بارستقراطيته الاجتماعية والأدبية وأصول مجاملاته وصلاته الماضية

تراجم قصيرة

لا بدّ أن نختتم بحثنا بمعلومات قصيرة عن السلاطين والولاة والأدباء الأتراك الذين ورد ذكرهم في ذكريات محمود صبحي الدفتري:

السلاطين

1 ـ **السلطان مراد الرابع** (1611 ـ 1640) ابن السلطان أحمد الأول، خلف عمه مصطفى الأول على عرش آل عثمان سنة 1623 وتسلم السلطة وعمره عشرون سنة.

عرف بقسوته الشديدة ويقال إن ضحاياه تجاوز عددهم مائة ألف. وقد قاد الجيش بنفسه في حربه مع الفرس فاسترجع بغداد سنة 1638. وكان ينظم الشعر باسم «مرادي».

2 ـ **السلطان إبراهيم أخو السلطان مراد الرابع**، وقد خلفه على العرش سنة 1640. كان ضعيف المدارك غير لائق للحكم، فاستسلم للملذّات وتحكمت والدته في شؤون الدولة، واضطربت أحوال السلطنة. وأخيراً قتل في عصيان الجيش سنة

1648 وخلفه ابنه محمد الرابع، وكان عمره سبع سنوات.

3 ـ **السلطان عبد الحميد الثاني** (1842 ـ 1918) ارتقى العرش سنة 1876 وأعلن الدستور الذي وضعه الصدر الأعظم أحمد مدحت باشا. لكنه لم يلبث أن عزل مدحت وفضّ المجلس النيابي وألغى الدستور وتولى الحكم بنفسه مستبداً في شؤون الدولة. وقد نشبت الثورة بقيادة حزب تركية الفتاة سنة 1908 وأعيد الدستور. وفي السنة التالية قامت ثورة رجعية أخمدت فوراً وخلع السلطان.

4 ـ **السلطان محمد رشاد الخامس** (1844 ـ 1918) نصب سلطاناً خلفاً لأخيه السلطان عبد الحميد (1909) ولم يكن في يده شيء من الحكم. ودخلت تركية الحرب العظمى سنة 1914 إلى جانب المانية فخسرت الحرب ومزقت الامبراطورية العثمانية.

5 ـ **السلطان محمد وحيد الدين السادس** (1861 ـ 1926) خلف أخاه السلطان محمد الخامس سنة 1918 وخلعه المجلس الوطني الكبير سنة 1922، فألغيت السلطنة وعهد بالخلافة إلى عبد المجيد الثاني الذي خلع هو نفسه سنة 1924.

ولاة بغداد

1 ـ **الوالي المصلح أحمد مدحت باشا** (1822 ـ 1884)

تولى ولاية بغداد سنة 1869 ودام حكمه ثلاث سنوات قام خلالها بتأمين الأمن وانشاء مشاريع عديدة. وأصبح بعد ذلك صدراً أعظم لأمد قصير فوالياً لسلانيك. عاد إلى الصدارة ووضع الدستور، لكن السلطان عبد الحميد عزله واستبد بالحكم. وتولى بعد ذلك ولاية سورية سنة 1878 فولاية أزمير، ثم حوكم بتهمة الاشتراك في اغتيال السلطان عبد العزيز ونفي إلى الطائف حيث آدركته الوفاة.

2 ـ **تقي الدين باشا** ينتمي إلى أسرة علمية تعرف بآل المدرس في حلب، نشأ نشأة دينية وكان مفتي بلده. ثم انتقل إلى الإدارة وكان متصرف شهرزور فوالي بغداد (1868 ـ 69). وعين والياً لبغداد للمرة الثانية سنة 1880 إلى استقالته (1887). ومضى إلى استانبول حيث توفي سنة 1892.

3 ـ **عبد الرحمٰن باشا** (1833 ـ 1912) وهو عبد الرحمٰن نور الدين باشا ابن الحاج علي باشا تولى ولاية بغداد مرتين (1875 ـ 1877) و(1879 ـ 1881). عاد إلى استانبول فكان صدراً أعظم أمداً قصيراً. وعين بعد ذلك والياً لقسطموني فأدرنة فوزير العدلية من 1895 إلى 1908.

4 ـ **مصطفى عاصم باشا** كان والياً لا شقودرة ونقل إلى

ولاية بغداد سنة 1887 فولاية سورية (1889). وتوفي سنة 1891.

5 ـ **عبد الوهاب باشا الأرناؤطي (الألباني)** كان والياً سابقاً للموصل، عين والياً لبغداد سنة 1904 ولم تطل ولايته أكثر من سنة.

6 ـ **نجم الدين ملاّ** عيّن والياً لبغداد سنة 1908 واستمر حكمه إلى ما بعد إعلان الدستور. ثم عيّن وزيراً للعدلية فغادر بغداد سنة 1909.

7 ـ **ناظم باشا** (1862 ـ 1909) ابن علي طيفور بك من أشراف ينيشهر، تقلب في مناصب عديدة في الموصل وأرضروم وديار بكر وقسطموني. وعيّن رئيساً للهيئة الاصلاحية في العراق سنة 1908. واصبح بعد ذلك وزيراً للعدلية العثمانية وقتل في أثناء الثورة الرجعية.

وهو غير الوالي الشهير الفريق الأول حسين ناظم باشا (1849 ـ 1913) الذي ولي الحكم في بغداد سنة 1910 ـ 1911 وعرف بـ «مدحت باشا الثاني» لاصلاحاته التي قام بها رغم مدة ولايته القصيرة التي قلّت عن سنة واحدة. وكان بعد ذلك وزيراً للحربية حتى اغتيل بسبب النزاع السياسي بين الاتحاديين والائتلافيين.

الأدباء الأتراك

1 ـ **عبد الحق حامد بك** (طرخان) (1852 ـ 1937) أشهر شعراء الترك في عصره، ينتمي إلى أسرة علمية عريقة. خدم في السلك الدبلوماسي في باريس وروسية واليونان وبمبي ولندن والهاي، وأخيراً كان سفيراً في بروكسيل. عيّن بعد صدور الدستور عضواً بمجلس الأعيان وكان نائباً لرئيسه خلال الحرب العظمى. انتخب نائباً بالمجلس الوطني سنة 1928 في العهد الجمهوري.

أشهر مؤلفاته: «مقبر» قصيدة طويلة في رثاء زوجته فاطمة التي توفيت سنة 1885. وقد نقل قسماً من هذه المرثية إلى العربية فهمي عرب آغا وطبعها في بغداد سنة 1953. وجدير بالذكر أن من الشعراء الذين نظموا ديواناً كاملاً في الرثاء الشاعر الانكليزي الشهير الفرد تنيسن (لورد تنيسن) (1809 ـ 1892) وهو في رثاء صديقه آرثر هلاّم.

ولعبد الحق حامد مؤلفات كثيرة منها: ما جراي عشق، صبر وثبات، دختري هندو، طارق فاتح الأندلس، صحراء، أشبر، زينب، والدم، طرخان، الهام، وطن، مكتوبلر، عبد الله الصغير، يادكار حرب، ابن موسى، يابانجي دوستلر، غرام أرضلر، خاقان الخ.

2 ـ **سليمان نظيف بك** (1868 ـ 1927) ابن الوالي الأديب سعيد باشا الديار بكري، شاعر أديب عرف بآرائه الحرة ونزعته الدستورية. كان والياً للبصرة وقسطموني والموصل وبغداد (1915) ولم يطل عهده في بغداد أكثر من ستة أشهر. له مؤلفات كثيرة منها: نامق كمال، فضولي، فراق عراق، جالتمش أولكه (الأملاك المسروقة) الشاه ناصر الدين والبابية، بطاريه أيله آتش (المدافع والنار) الخ.

وعرف أخوه الشاعر فائق عالي بك. ولد في ديار بكر سنة 1875 وكان متصرفاً للآستانة خلال الحرب العظمى الأولى وأصبح والياً بعد ذلك. من مؤلفاته: الحان وطن، مدحت باشا، ومجموعات شعرية.

3 ـ **نيكار هانم عثمان** (1871 ـ 1918) عرفت شاعرة مجيدة.

4 ـ **باقي** (1526 ـ 1600) وهو محمود باقي شاعر الغزل والرثاء، اتصل بالسلطان سليمان القانوني فقربه إليه ورعاه، ولما مات السلطان رثاه بقصيدة رائعة ترجم بعضها إلى العربية وحيد الدين بهاء الدين في كتابه «أعلام من الأدب التركي». ونال الحظوة لدى خلفاء السلطان سليمان وعيّن قاضياً في استانبول والمدينة ومكة وأخيراً شيخاً للإسلام.

5 ـ **إبـراهيـم شنـاسـي** (1826 ـ 1871) مـن الشعـراء المجددين، أصدر جريدة ترجمان أحوال وجريدة تصوير أفكار. له دواوين شعر ومؤلفات أخرى.

6 ـ **نـامق كمـال** (1840 ـ 1888) الشـاعـر الـوطنـي الحـر الثائر، انتسب إلى جمعية العثمانيين الجدد التي أنشئت لمناهضة الإدارة الرجعية وسياسة الاستبداد في عهد السلطان عبد العزيز، فأبعد إلى أرضروم حيث عيّن معاوناً لمتصرفها. لكنه هرب إلى باريس ولندن حيث واصل مساعيه الحرة. وأعلن العفو العام فعاد إلى استانبول لمواصلة العمل السياسي. وكتب المقالات النارية في الصحف ووضع مسرحية الوطن أو سلسترا. وعطلت جريدته «عبرت» ونفي إلى قبرص. وأطلق سراحه بعد ثلاث سنوات فعاد إلى العاصمة. وارتقى العرش السلطان عبد الحميد فنفاه إلى جزيرة مدللي.

وضع مسرحيات وروايات ومؤلفات تأريخية وترجم إلى التركية بعض آثار مونتسكيو وجان جاك روسو.

6 ـ **سليمان نسيب بك** (1867 ـ 1917) وهو محمد سامي بك ابن القائد العثماني الشهير سليمان باشا. كان مدير معارف بغداد التي نشأ فيها بعد أن نفى السلطان عبد الحميد الثاني والده إليها. وعاد سليمان نسيب إلى استانبول وكان مديراً عاماً

لجامعتها «دار الفنون». وقد رثاه عند موته معروف الرصافي وفهمي المدرّس ومحمود صبحي الدفتري وإبراهيم الحيدري الذي أصبح فيما بعد شيخ الإسلام ووزير الأوقاف العراقية.

7 ـ **الدكتور رضا توفيق** (1868 ـ 1950) الطبيب الشاعر الفيلسوف ومن رجال تركية الأحرار. أبعد عن تركية فكان مدير الآثار في شرقي الأردن. وزار بغداد سنة 1940 بدعوة من محمود صبحي الدفتري. وقد عاد بعد ذلك إلى تركية وتوفي بها. له أشعار ومؤلفات عديدة منها كتاب عن عمر الخيام ألفه بالإشتراك مع الأديب الإيراني حسين دانش.



الفريق محمد فاضل باشا الداغستاني
وبيمينه فارس اغا من رؤساء بيشدر واخوته

محمد فاضل باشا الداغستاني

في سهول داغستان الدافئة ووديانها المترامية من سفوح القفقاس إلى شواطىء بحر قزوين تعيش القبائل الإسلامية منذ عصور، قوية الشكيمة عزيزة الجانب، تتنفَّس هواء الحرية ملء خياشيمها شأن أفراسها المطهّمة التي تعضّ أرسانها وتنفث الزبد من أشداقها، وتنطلق كالرياح العاتية في الأراضي الممتدة إلى خطوط الأفق. لم تخضع هذه القبائل لحكم قيصر الروس في بطر سبورج إلا بعنت وصعوبة. فلما رفع الشيخ شامل زعيمها الروحي والمدني راية الجهاد سنة 1834، دارت الحرب سجالاً بين فرسان القفقاس والجيوش القيصرية ربع قرن حتى اضطرّ الشيخ الباسل في آخر الأمر أن يعنو للقوة القاهرة، فاستسلم والقى السلاح في سنة 1859، وقد أحسن الروس معاملته وسمحوا له بالعيش في مدنهم تحت رقابة السلطة، ثم مضى إلى الحجّ فأدركه الحمام في مكة سنة 1871. وكان في نحو الرابعة والسبعين من عمره.

لقد خلّد الكاتب الروسي الكبير تولستوي حياة هذا القوم

الأبيّ المناضل في روايته «الحاج مراد» ورسم لأبطال الجركس والجاجان والقفقاس وداغستان صورة حيّة رائعة الجمال.

وفي سنة 1860 هاجرت جماعة كبيرة من رجال داغستان إلى البلاد العثمانية واستوطنت ربوعها، حتى إذا ما جاء مدحت باشا والياً على العراق سنة 1869، دعا فريقاً منهم إلى القدوم، وأسكنهم في بغدَاد وجهات المنصورية، وعهد إلى رجالهم مناصب في قوات الجيش والشرطة لما اتصفوا به من بسالة واخلاص في الخدمة.

وفي مرابع داغستان الشامسة، في قرية جوه من أعمال القفقاس ولد الفريق الأول محمد فاضل باشا في نحو سنة 1846، وكان أبوه داود لاو من السلالة الأفارية من أسرة المشايخ المتصلة بالشيخ شامل بوشائج القرابة. ولما كبر وبلغ أشدّه أخذ إلى بطر سبورج العاصمة شأن أقرانه من أبناء الأشراف وأدخل المدرسة العسكرية، فتخرّج ضابطاً في الجيش القيصري في الثامنة عشرة من عمره. ولم تمض ثماني سنوات حتى استقال من الجيش الروسي وذهب إلى الآستانة مؤثراً اللحاق بزوج اخته الغازي محمد باشا ابن الشيخ شامل الذي انضم إلى الجيش العثماني ونال الحظوة لدى السلطان.

ونشبت الحرب التركية الروسية سنة 1877 فحارب محمد

فاضل في صفوف العثمانيين برتبة رئيس أول وأظهر شجاعة فائقة. وعلى أثر ذلك عينه السلطان عبد الحميد الثاني مرافقاً له، ورفع في أيار 1882 إلى رتبة أمير لواء، ثم عيّن قائداً للخيّالة في الفيلق السادس في بغداد (شباط 1884).

روى المهندس الانكليزي السر وليام ويلكوكس في مذكراته، وكان قد تعرّف بمحمد فاضل باشا في أثناء قيامه ببناء سدّ الهندية على الفرات قبيل الحرب العظمى، ان الداغستاني كان من حرس السلطان عبد الحميد، فانطلق أسد من قفصه فلم يكن منه إلا أن تقدم إليه بسيفه وهاجمه حتى ردّه على أعقابه. وأشار الجواسيس على السلطان بابعاده بدعوى أنه رجل خطر لا يهاب الأسود، فينبغي الحذر من بأسه. وأبعده السلطان إلى بغداد، لكنه بقي بالرغم من ذلك يحترم الخليفة ويقدّس ذكره، ولو أمره بالانتحار لفعل طاعةً له.

وفي صدد قضية الأسد ذكر هلال الصابىء في كتابه «رسوم دار الخلافة» عن المعتضد بالله الخليفة العبّاسي أن سبعاً أفلت من يدي سبّاع في حضرته، فهرب الناس من بين يديه مذعورين، لكن الخليفة ثبت في موضعه.

وذكر عباس العزاوي في المجلد الخامس من «تأريخ العراق بين احتلالين» أن أحمد باشا والي بغداد من المماليك

خرج للصيد سنة 1732 ومعه الخيل والحشم، فتوجّه إلى هور عقرقوف وسار في طريقه في الآجام. ووجد في تلك الأنحاء أسداً، فهرب أعوان الوالي في هلع شديد، لكن هذا أغار على الوحش الضاري بقوة جأش ورماه بحربة أصابت أحشاءه، ثم ترجل وصال وأجهز عليه بسيفه. وغضب الوالي على أعوانه اللائذين بالفرار وأنحى عليهم باللائمة، فقال له ظريف منهم: إن أسدين تقارعا، فما شأن الكلاب بينهما!. واستشهد العزاوي ببيت المتنبي:

أمعفـــر الليـــث الهِـــزَبْـــر بســـوطـــه
لمـــن ادّخـــرت الصـــارم المسلـــولا؟.

جاء محمد فاضل باشا إلى العراق فقضى فيه زهاء ثلث قرن واستشهد على تربته. وقد أصبح من رجال بغداد المرموقين، مهيب الطلعة، كثّ اللحية، أصمّ الأذنين، منطلق الأسارير. وكانت داره موئل البغادّة، يقصدها العوامّ لمشاهدة الأسود والدببة والقرود التي سجنت في أقفاص حديد بناحية منها، ويرتادها الخواصّ لحضور مجلس القائد الذي يتصدّر قاعة الاستقبال جالساً على سرج حصان لشدّة ولعه بالفروسية وتفضيله صهوة الخيل.

وعهد إليه بتأديب عشائر الهماوند التي عاثت فساداً فطاردها في أطراف مندلي وخانقين (1885 ـ 1886) وأسر

رؤساءها وخضد شوكتها. ورفع سنة 1904 إلى رتبة فريق وعين قائداً في لاهيجان وبسوه على الحدود الإيرانية. وعاد إلى بغداد سنة 1907 قائداً للفيلق السادس. وعهد إليه بوكالة ولاية بغداد (أيار 1909)، ثم عين والياً للموصل وقائداً لقواتها (آب 1909)، واعتزل الخدمة بعد ذلك.

أعيد إلى الجيش في تموز 1913 مفتشاً لفيلق العراق. وقاد حملة عسكرية لتأديب عشائر بارزان المتمرّدة بزعامة الشيخ عبد السلام. وأسند إليه منصب الوالي بالوكالة مرة ثانية في 10 ايلول 1913 فقام بأعبائه أربعة أشهر إلى 18 كانون الثاني (يناير) 1914 حين قدم الوالي الأصيل جاويد باشا. وأتيح له خلال هذه المدة أن افتتح سدّ الهندية الذي أقامه المهندس السر وليام ويلكوكس في 12 كانون الأول (دسمبر) 1913.

ولما أعلنت الحرب العامة واصطلت الدولة التركية بنارها عاد القائد الشيخ إلى امتطاء فرسه وسلّ سيفه من غمده، إذ عيّن قائداً لقوات العشائر والجيش غير النظامي في منطقة الحويزة (آذار 1915). وحارب في سوح العراق الجنوبية، وانسحب مع قواته أمام الجيوش البريطانية الزاحفة. وألحق به الضابط النظامي توفيق بك الخالدي ضابط ركن، وكان مع الحملة التركية من العلماء الشيخ مهدي الخالصي وعبد الكريم الجزائري وغيرهما. ووصل الداغستاني بقواته إلى مدينة الكوت حين فرض عليها

الجيش التركي الحصار. وفي معركة شنّها الانكليز لرفع الحصار استبسلت القوات التركية وجموع العشائر في ردّ المغيرين وكتب لها النصر في ذلك اليوم، لكن سقط الفريق الأول محمد فاضل باشا شهيداً في حومة الوغى في 11 آذار 1916. وقد دفن في اليوم التالي باحتفال عسكري مهيب وانطلقت في رثائه ألسنة الشعراء، ومنهم جميل صدقي الزهاوي وعبد الوهاب النائب.

قال الزهاوي يندبه:

الموت، إذ وطن الأبيّ مهدّد
مجد يشايع أو حياة تخلدُ
ما مات في أرض الجهاد محمد
بل عاش في أرض الجهاد محمد...
أفديك من بطل هوى عن طِرْفِهِ[1]
والسيف في يده تشُدّ به اليد
شبّت من الجيشين حرب نارها
تشوي الوجوه فلم يرعك المشهد
إذ كانت الأعداء تسعر نارها
والنار منك قريبة لا تبعد

---

(1) الطِرْفة: الجواد.

ولقد رسوت أمام جحفلهم كما
في صدر مجرى السيل يرسو الجلمد
أما الحمام فكان يبرز نابه
ويطيل من نظر إليك ويرصد
حيث القنابل في ميادين الوغى
نفدت، وعزمك وافر لا ينفد
الناس حامدة ثبات محمد
والدين يحمد والمواطن تحمد
صاحوا: الجهاد، ضحى فلبّى عالماً
إن الجهاد هو الطريق الأقصد
شبّت فأقسم بالبسالة أنه
بالرغم عن هرم به لا يقعد
ما زال في ظلّ الهلال مجاهداً
حتى أصابته بمنفلق يد
فبكى عليه سيفه وجواده
وبكى عليه صلاحه والمسجد
لاقى الرّدى فوق الجواد كأنّما
متن الجواد إلى التّلاقي موعد
للّه تلك النفس والخلق الذي
يرضي وذاك الخاطر المتوقّد

ورثاه عبد الوهاب النائب فقال:

إنّ القبـــور تبـــاشـــرت بمحمـــد
الفـــاضـــل النـــدب الكـــريـــم الأمجـــد
فـــي النشـــأتيـــن لـــه عظيـــم مفـــاخـــر
ودم الشهـــادة شـــاهـــد بـــالمقصـــد
ذاك الـــذي بـــذل الحيـــاة لـــدينـــه
ويلـــي عليـــه وويـــل كـــلّ مـــوحّـــد...

كتب عنه نجدة فتحي صفوة بعد أعوام طويلة فقال: «كان محمد فاضل باشا الداغستاني شخصية مهيبة، له قامة فارعة ولحية بيضاء طويلة. وكان يوصف بالشهامة والكرم والتمسّك بشعائر الدين، وكانت له في بغداد وفي جميع أنحاء العراق سمعة حميدة، ومن الخصال ما حبّبه إلى قلوب العشائر وأهل المدن على السواء...»

أعقب محمد فاضل باشا ولدين هما داود بك واللواء غازي. وبناته تزوّجن اللواء عزّت باشا الكركوكي والفريق أحمد جودت العزاوي والدكتور شوكت الزهاوي وحكمت سليمان وتوفيق عبد الكريم السعدون ونجيب الراوي.

روى عباس العزاوي قصة تدلّ على شهامة الداغستاني وفتوّته. فقد ألقى القبض على حمه مام سليمان أحد رؤساء

الهماوند، وذلك في أنحاء خانقين حينما كلّف بتأديب هذه العشيرة العابثة بالأمن، فأكرمه ومنحه فرساً وبندقية. لكن حمه مام انتهز الفرصة في إحدى الليالي وفرّ هارباً.

ولما علم محمد فاضل باشا بهروبه لحق به، فقال حمه مام: إن كنت رجلاً فقف أمامي وجهاً لوجه بمعزل عن الجيش. ووافق القائد فتبادلا إطلاق الرصاص. وهرب الهماوندي، وتبعه القائد على فرسه ولم يتركه حتى استسلم في مقرّ الحكومة في كركوك. وعابته على فعله، فقال حمه مام: وماذا يأمل القائد من حمه مام بعد أن ملك بندقية وفرساً؟.

وقال غازي الداغستاني ان أسرته سافرت به إلى كركوك بعد مقتل والده في حرب الكوت، فلما عادوا إلى بغداد قام أولاد حمه مام بحراستهم وفاءاً بحق أبيهم بعد أكثر من ثلاثين سنة.

ولده: اللواء غازي محمد فاضل الداغستاني كان من المع ضباط الجيش العراقي. ولد في بغداد سنة 1910 ودرس في مدرسة الأليانس وكلية فكتوريا بالاسكندرية. وانتمى بعد ذلك إلى المدرسة العسكرية في بغداد والتحق بالجيش العراقي سنة 1928. وقد أوفد لمواصلة دراسته في كلية الأركان في كويتّا بالهند (ألحقت بعد ذلك بالباكستان)، واشترك في دورات

عسكرية في إنكلترة وفي كلية ووليج في لندن، وقد اختصّ بالهندسة. واشترك في حملة تأديب الآثوريين سنة 1933، وكان برتبة ملازم ثان.

حارب الانكليز في أيار 1941 وكان برتبة رائد ركن. وأوفد في مساء 30 أيار إلى السفارة البريطانية المحاصرة في بغداد لطلب الهدنة من السفير السر كنهان كورنواليس. وفي صباح 31 منه حمل علم الهدنة عبر جسر الخرّ الحديدي أمام أرتال الجيش البريطاني القادم نحو بغداد.

وحارب في فلسطين في أيار 1948. وتولى مديرية الأشغال العسكرية، ثم عين سنة 1952 ملحقاً عسكرياً في السفارة العراقية في لندن. ورقّع في كانون الأول (دسمبر) 1955 إلى رتبة لواء، وعين معاوناً لرئيس أركان الجيش وقائداً للفرقة الثالثة في بغداد.

ولما نشبت ثورة 14 تموز 1958 اعتقل وحكم عليه بالاعدام، ثم عفي عنه وأطلق سراحه (1961). مضى بعد ذلك إلى لندن وتوفي بها في 11 كانون الثاني (يناير) 1966.



الفريق خليل باشا

الفريق خليل باشا

والي بغداد التركي الأخير وقائد العراق أمير اللواء خليل باشا، وهو ابن أحمد وعمّ القائد الشهير أنور باشا وزير الحربية (1881 ـ 1922).

ولد خليل سنة 1881 وتخرّج في المدرسة العسكرية في استانبول سنة 1904 برتبة يوزباشي ممتاز. حارب في طرابلس الغرب والبلقان، وأصبح سنة 1913 عقيد أركان حرب.

اشترك في حرب القفقاس، ثم أرسل إلى العراق، وهو آنذاك الزعيم خليل بك، على رأس حملة عسكرية وصلت الموصل في أواخر شباط 1915 وحاربت القوات الروسية في اورمية وديلمان، ثم انسحبت إلى ولاية وان في أيار من السنة نفسها. وفي أواخر تلك السنة نقل إلى ساحة الكوت قائداً للفيلق الثامن عشر بإمرة قائد قوات العراق الزعيم نور الدين بك.

ورفع إلى رتبة «مير لوا» وعيّن والياً لبغداد وقائداً لجيش

العراق في 12 كانون الثاني 1916.

عقدت عليه الآمال وهنأه الشاعر عبد الرحمٰن إبراهيم المصري قائلاً:

يـا قـائـداً جيـش العـراق، لـك الثّنـا
والحمـــد والشكـــران والإطـــراء
بـــك لا بغيـــرك تستـــردّ بـــلادنـــا
وبسيـــف عـــزمـــك تمحـــق الأعـــداء

تولى خليل باشا قيادة الجبهة العراقية، وكان الجيش البريطاني قد تقدم من الجنوب واحتلّ الكوت في 28 ايلول 1915 بعد معركة السّنّ التي دحر فيها الجيش التركي وأسر منه 1650 رجلاً. وزحفت القوات البريطانية في تشرين الثاني حتى بلغت سلمان پاك، لكن الجيش التركي صدّ هجماتها وكبّدها خسائر جسيمة. واضطرّ القائد الانكليزي الجنرال شارلس تاونسند أن يرتدّ بقواته الانكليزية الهندية إلى الكوت فبلغها في 3 كانون الأول وتحصّن بها. وطوّقتها القوات التركية وشدّدت الحصار عليها، ودارت الحرب سجالاً بين الفريقين حولها. لكن نفاد المؤن أرغم الجنرال تاونسند على الاستسلام بعد أن فقد الأمل في الخلاص، وحمل أسيراً مع 9250 رجلاً من الانكليز والهنود في 29 نيسان 1916. وكانت المحاولات التي بذلها الانكليز لاستردادها في الأسابيع السالفة قد كلفتهم فقدان 24 ألف رجل.

وقد عرضت الحكومة البريطانية سراً على خليل باشا مبلغ مليون باون استرليني ذهباً لفكّ الحصار عن الكوت فأبى. قال في ذلك ستيفن لونغريغ في كتابه «العراق 1900 ـ 1950» ما ترجمته: «وقد لجأ إلى محاولة يائسة ومنافية للياقة في سبيل شراء سلامة الحامية بالنقد من القائد التركي، لكنها قوبلت بالرفض. فقد اوفد (توماس ادورد) لورنس وأوبري هربرت إلى العراق للقيام بالمحاولة التي لم تحظ بقبول كوكس (السر برسي كوكس رئيس الضباط السياسيين». . . ».

لكن مجرى الحرب تغيّر في أواخر السنة بعد تعزيز القوات البريطانية وتعيين الجنرال السر ستانلي مود قائداً عاماً. وكان خليل باشا قد جاء إلى بغداد في 11 أيار 1916 قادماً من ميدان الحرب في زورق بخاري مسلّح وتولّى مقاليد الولاية. وعرف لدى الأهلين بالميل إلى العبث واللهو، وقد شقّ شارعاً رئيسياً في بغداد سمّي «جادة خليل باشا»، ثم أطلق عليه بعد ذلك اسم شارع الرشيد.

غادر خليل باشا مدينة بغداد قبيل سقوطها في أيدي الجيش البريطاني في 11 آذار 1917 وظلّ يقود الجيش التركي المنسحب إلى الشمال. وكان اللواء علي إحسان باشا نائباً له في ساحة الموصل، ثم خلفه في القيادة، فقام بتسليم المدينة بعد الهدنة في 8 تشرين الثاني 1918.

نقل خليل باشا في تموز 1918 إلى ساحة القفقاس برتبة فريق وعيّن قائداً لجحفل الجيوش الشرقية. وفتح باكو في أيلول 1918. وعند إعلان الهدنة اعتقل في باطوم، لكنه هرب في أوائل 1919 وعاد إلى استانبول. وأعيد اعتقاله بتهمة تقتيل الأرمن، واستطاع الفرار في آب 1919 إلى الأناضول. وكلفه مصطفى كمال باشا (أتاتورك) بالحصول على أسلحة ومساعدات مالية من البلشفيك، فمضى إلى روسية ووصل إلى موسكو في أيار 1920، وحصل على بعض المساعدات.

ثم قام بجولات في روسية وطرابزون تأييداً لمساعي أنور باشا في إنشاء مجالس شعبية في الأناضول منافسة للحركة الكمالية. وقد طرده الكماليون من طرابزون سنة 1922، ومضى إلى برلين. ثم عاد إلى استانبول بعد انتصار الحركة الكمالية. واعتزل الخدمة برتبة فريق أول. وحين أعلن قانون القاب الأسر التركية سنة 1934 اتخذ لنفسه لقب «كوت» باسم المدينة العراقية التي استسلمت له خلال الحرب العامة، فأصبح يعرف باسم خليل كوت.

وعاش بعد ذلك في استانبول حتى قضى نحبه فيها في 21 آب 1957. وكان آخر ولاة الدولة العثمانية في عاصمة العباسيين اختتمت به صفحة تأريخية حافلة دامت نحواً من أربعمائة سنة.

كان لانتصار خليل باشا على الانكليز وردّهم على أعقابهم وضرب الحصار على الكوت أثر بالغ في نفوس العراقيين، فقال محمد رضا الشبيبي في قصيدته «يوم المدائن وتل السّور»:

لولا بِلَى طَيْسَفُون، والبلى حَرَمُ،
دُكَّتْ كما دُكّ من أركانه الطّورُ

رواية النصر صبّت بعدما اشتبهت
وحينما رجّمت عنك الآخابير

لتذكري بخليلٍ أو بفيلقه
سعداً، وفيلق سعدٍ فيكِ منصور

كلٌّ همامٌ وكلٌّ ليث ملحمة
آزلٌ دامية منه الأظافير

يوم آغرّ من الأيام منبلج
وموقف في سبيل اللّه مأثور

لكن الفريق محمد أمين العمري ينتقد خليل باشا في المجلد الثاني من «تأريخ حرب العراق» (1935)، فيقول إنه لم يتوخ هدفاً معيناً بعد اندحار جبهة الفلاحية وتراجعه نحو بغداد، ولم يعدّ خطة معينة، بل كان متردداً لم يهيّء مواضع دفاعية متعاقبة وراء الجبهة خلال فترة السكون التي مضت في صيف عام 1916 وخريفه. وقد تقاعس حتى عن درس الأراضي

الصالحة للدفاع، ولم يعتقد بحراجة موقفه حتى عند اشتداد هجوم الجنرال مود في كانون الثاني 1917. وكانت النتيجة المحتومة لذلك زحْف القوات البريطانية واحتلالها بغداد.

محمود صبحي الدفتري
يتحدث عن الوالي خليل باشا

حدثني الدفتري عن خليل باشا، قال إنه تولّى ولاية بغداد وقيادة ساحة العراق شاباً. وكان مرحاً متواضعاً مرفوع الكلفة لطيف المعاشرة بخلاف سلفه نور الدين باشا القائد الوقور المتزمّت.

قال الدفتري: كنت في استانبول حين عقدت الهدنة في أواخر سنة 1918 ودخل الحلفاء إلى عاصمة الخلافة فاتحين. وعلى الأثر فرّ زعماء الحكم المخذول أنور باشا وجمال باشا وطلعت باشا، وقبض على الزعماء الآخرين كالأمير محمد سعيد حليم باشا وزجّوا في السجن، ثم أبعدوا إلى مالطا. وذهبت إلى السجن لأزور صديقاً لي من الضباط المعتقلين، فلم أجده، وقيل لي إنه نفي مع المنفيين، ولكنني وجدت في السجن خليل باشا، والي بغداد السابق، وكانت لي به معرفة فطفقت أحادثه وأسأله عن حاله. وقد أخبرني أنه قد اعتقل عند احتلال

الآستانة، ولم يكن يشكو شيئاً في سجنه لأنّ الموظفين والحرّاس من أعوانه فيخدمونه ويحترمونه. ولكنه علم أنّ في نيّة الحكومة الجديدة تقديمه إلى المحاكمة بتهمة الاختلاس، وذلك ما يغيظه أشدّ الغيظ. فقد قال خليل باشا إنه خسر موقعة خطيرة وضيّع بغداد على الدولة، فهو يرحّب بتقديمه إلى المحكمة بتلك التهمة، أما أن يحقّر بمحاسبته على سرقة أرزاق الجيش أو أكياس طحين وعلف، فتلك أعظم اهانة يمكن أن تحيق به، فإنه رفض الملايين التي لوّح بها للاخلال بواجبه، وهو قد كان يتصرف في أكياس الذهب من المصاريف السرية فيمنحها لمن هبّ ودبّ، ولم يرض أن يأخذ لنفسه شيئاً منها. فكيف يقبل أن يكون هزأة للناس في محاكمة عن اختلاس موهوم؟. وقال إنه إذا تحقق لديه مثل تلك الاشاعة فسيعلم كيف يفرّ من سجنه.

ولم تمض أيام قليلة على ذلك الحديث حتى شاع أمر فرار خليل باشا من سجنه بتدبير من مدير السجن الذي آثر الفرار معه إلى الأناضول.

كلمة أخيرة في خليل باشا

حينما حوصر الجنرال تاونسند في الكوت كلف توماس ادورد لورنس (الذي اشتهر فيما بعد باسم لورنس بلاد العرب) بمهمة غريبة في حرب العراق. كان آنذاك برتبة كابتن في الجيش البريطاني في القاهرة، وعمره لا يتجاوز الثامنة والعشرين، وقد أمر أن يتصل بالقائد التركي خليل باشا في اوائل سنة 1916 ويعرض عليه مبلغ مليون باون لاطلاق سراح القوات البريطانية المحاصرة. وكان التكليف صادراً من رئيس أركان الجيش الامبراطوري في لندن السر وليام روبرتسن، لكن السر برسي كوكس رئيس الضباط السياسيين في العراق رفض أن يشارك في هذا المشروع المشبوه.

كان عدد القوة البريطانية المحصورة في الكوت عشرة الآف رجل من البريطانيين والهنود.

وصل الكابتن لورنس إلى البصرة في آخر آذار 1916 وكان معه أوبري هربرت من دائرة استخبارات الجيش. اتصل الرجلان

بخليل باشا وعرضا عليه مليون باون، ثم مليونين، فرفض الرشوة بسخرية واباء. ثم لم يلبث تاونسند أن استسلم بلا قيد، ولا شرط بعد أن نفدت ذخيرته وطعامه وابتلي أفراد جيشه بالملاريا والزحار. لكن لورنس وصاحبه عاودا الاتصال بخليل في 29 نيسان لترتيب تفاصيل الاستسلام، وحاولا البحث في مصير أهالي الكوت الذين رحبوا بالانكليز، غير أن القائد التركي ذكّرهما أن الاستسلام كان بلا شرط. وقد اكتفى بعد ذلك باعدام تسعة أشخاص منهم اثنان من المختارين ومثلهما من الشيوخ.

كتب لورنس تقريراً عن مهمته الخائبة. ومدح خليل باشا فقال إنه في نحو الخامسة والثلاثين من عمره، قويّ البنية نشيط الحركة. ولا يظهر أنه شديد الذكاء، لكن له ذاكرة قوية وفكر يقظ مع شخصية قوية وأدب جمّ وشجاعة اشتهر بها. وكان مع خليل ضباط أركان عددهم 12 أحدهم الماني حسب الظاهر.

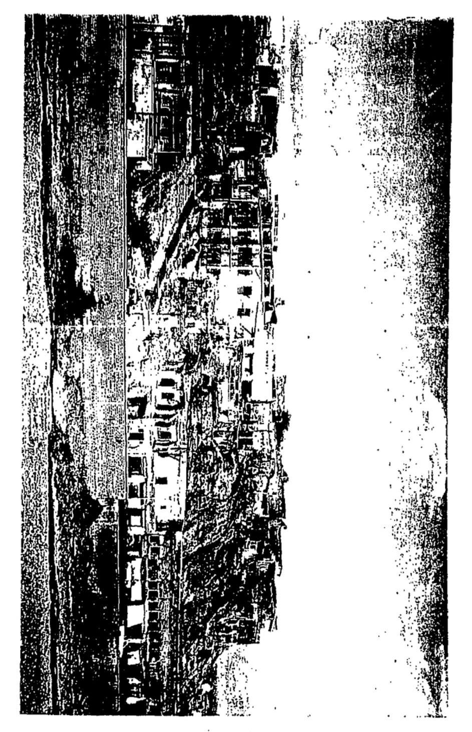
* * *

كان خليل باشا جندياً تركياً محضاً لا همّ له في الإدارة وتدبير معيشة الأهلين وأبناء الشعب، وكان ضباطه بعد احتلال بغداد وانتقاله بجيشه إلى شمال العراق يصادرون الحبوب والمؤن لتموين القوة العسكرية غير مبالين بجوع الناس وتلفهم. وكانوا يهدمون المباني والكنائس ويستولون على أخشابها للتدفئة في موسم البرد الشديد.

وقد ذكر عبد العزيز القصاب في كتابه «من ذكرياتي» أنه مضى إلى الموصل في أواخر سنة 1917 وتجوّل في أزقتها، فشاهد الفقراء والمهاجرين من ولاية وان وهم في حالة مزرية رجالاً ونساء، منتشرين في الطرق والأسواق. ويختفي بعضهم تحت دكاكين البقالين والخبازين يتصيّدون المشترين يهاجمونهم ويستولون على ما اشتروه من خبز أو سمن. وشاهد مأموري البلدية معهم الحمالون يجمعون جثث الميتين جوعاً كما يجمعون الحطب والنفايات ويضعونها في سلالهم، وقد استحالت إلى هياكل عظمية رقيقة.

وزار القائد العام خليل باشا، وكان له معرفة به في بغداد، فصار يحدثه عن الشدة التي يلاقيها الجيش من ندرة الذخيرة والغذاء. قال القائد إن الجيش، حين كان في بغداد، كان بإمكانه عند الحاجة أكل التمر، أما هنا فلا يجد ما يقتات به.

ولم يبد خليل باشا أقلّ اهتمام بحالة البلد والمجاعة القاتلة المنتشرة فيه.



كركوك مدينة النفط

إذا ذكر التركمان في العراق فلا بدّ من ذكر كركوك مدينة النفط. عثر على الذهب الأسود في أماكن مختلفة من العراق شماليه وجنوبيه، لكن كركوك كانت أولى هذه الأماكن وأقدمها في الاستثمار وأكثرها شهرة.

يرجع الاهتمام بالنفط العراقي إلى أواخر القرن التاسع عشر حين كان السلطان عبد الحميد الثاني يهيمن من قصره المطلّ على البوسفور على مقادير أمبراطورية واسعة الارجاء، مترامية الأطراف، تجمع بين قارات ثلاث وتزخر بشتى الموارد والمرافق. وفي العقد الأخير من ذلك القرن تطلعت الولايات المتحدة الأميركية إلى الاستيلاء على منابع النفط العراقية الغزيرة، فقدم إلى الآستانة نائب أمير البحر كولوي شستر لمفاوضة الباب العالي بشأن الامتياز. ولم يكد المفاوض الأميركي يشرع بمباحثة السلطان حتى بادر دارسي الانكليزي وجماعة «الدويتش بنك» الألماني في مزاحمته على هذه الثروة الكامنة. وطالت المفاوضات سنوات، لكن السلطان الداهية لم

يصبح وقتاً لضمّ منطقة النفط العراقية إلى الأملاك السنيّة. وكان ذلك منشأ الدعاوي التي ادعاها بعدئذٍ امراء الأسرة العثمانية المخلوعة في المطالبة بأراضي النفط في شمال العراق.

غير أن الانقلاب العثماني قد وقع، فخلع السلطان عبد الحميد قبل منح امتياز النفط العراقي إلى أحد الطامعين فيه. وبرز عندئذٍ إلى الميدان رجل أرمني من أهل الذكاء والدهاء اسمه كالوست سركيس غولبنكيان، فلم يمض وقت طويل حتى وقعت الحكومة التركية في 23 تشرين الأول 1912 على الاتفاق القاضي بمنح الامتياز المنشود إلى المصرف الوطني التركي وكتلتي «شل» الانكليزية و«دويتش بنك» الالمانية بنسبة 50 بالمائة للأول و 25 بالمائة لكل من الكتلتين الاثنتين. ثم والى غولبنكيان الوسيط جهوده فأسفرت بعد سنة ونصف عن تنازل المصرف الوطني التركي عن حصته لشركة النفط الانكليزية الفارسية. وكوفيء المفاوض الداهية بهدية 5 في المائة من أسهم الشركة المؤلفة لاستثمار النفط العراقي، وقيمة هذه الأسهم أصبحت تساوي بعد بدء الاستثمار بملايين الجنيهات. وأعلنت الحرب العظمى بعد أشهر قليلة في أواخر سنة 1914، فقرر تحويل حصة الكتلة الالمانية إلى كتلة «شل» الانكليزية. وهكذا أصبحت بريطانية تمتلك امتياز النفط العراقي برمته.

وكانت قد ألفت شركة لاستثمار هذا الامتياز برمته منذ

أوائل سنة 1900 في لندن باسم «شركة الامتيازات الافريقية والشرقية المحدودة» وبرأس مال قدره 50 الف باون. ثم استبدل اسم الشركة عند الحصول على الامتياز بـ «شركة النفط التركية» ورفع رأس مالها إلى 80 ألف باون. واصبح اسم الشركة منذ سنة 1929 «شركة النفط العراقية» وارتفع رأس مالها شيئاً فشيئاً إلى 14,5 مليون باون.

واستعرت نيران الحرب سنة 1914 ودارت رحى المعارك في أنحاء العراق، وأصبح العالم في شغل عن النفط وامتيازه. وانتهت الحرب باندحار تركية وفوز انكلترة. ثم تتابعت الحوادث وألحقت منطقة الموصل بالعراق. ولم تتأخر شركة النفط التركية بعد ذلك عن مفاوضة الحكومة العراقية لتجديد امتيازها الذي حصلت عليه من الحكومة التركية السابقة. وفي 14 آذار 1925 وقع المندوب العراقي وممثل شركة النفط على اتفاق يقضي بمنح الشركة امتياز استثمار النفط لمدة 75 سنة. وعدلت شروط الامتياز بعد ستّ سنوات، فحددت منطقة الامتياز بأراضي ولايتي الموصل وبغداد السابقتين شرقيّ نهر دجلة على مساحة قدرها 32 ألف ميل مربع، وجعل رسم الحكومة على النفط المستخرج أربعة شلنات ذهبية للطن الواحد على أن يكون الحدّ الأدنى للرسوم السنوية 400 000 باون ذهب.

أما حصص شركة النفط العراقية فبقيت بضعة أعوام مثار

نزاع بين الكتل العالمية الكبرى حتى تم الاتفاق على توزيعها بنسب متساوية بين شركة النفط الانكليزية الايرانية وكتلة «دتش شل» الهولندية البريطانية وشركة النفط الفرنسية وكتلة «ستاندارد» الأميركية، وذلك باستثناء حصة آل غولبنكيان البالغة 5 بالمائة. وعند استنزاف كل هذه المراحل أزفت ساعة استنباط النفط العراقي الكامن واستثماره، وباشرت الشركة أعمال الحفر والتنقيب.

إذا اقترب القادم من كركوك بدت له في حواشي الأفق عواميد تتصاعد ناراً ودخاناً وتتجمع في سحب كثيفة يشقها وميض اللهب المتأجج، وداعبت أنفاسه رائحة غريبة تهيج خيشومه. لقد أشرف على منطقة النفط الواسعة التي تفجر أديمها منذ القدم بالمعدن السائل وظلت ينابيع ثروتها تفيض في البقاع الجرد أعواماً وقروناً، حتى انتبه لها العلم فألجمها بعدده وآلاته وصبّها في المسارب الفولاذية المتلوية في جوف الأرض، وأفرغها في الأنابيب التي تذهب بها إلى كل بحر وقطر.

في وسط تلك الأراضي المضطرمة بالنار الأزلية انتصبت كركوك، مدينة النفط، مطلة من علياء قلعتها القديمة على الآبار والعيون المتدفقة حواليها. وقد عرفت نواة هذه البلدة قبل مئات السنين باسم كرخ سلوق، ثم أصبحت على عهد صاحب معجم البلدان، ياقوت الحموي، تدعى كرخيني. وبقيت إلى عهد

قريب واحة منزوية في صحراء النفط، حقيرة البيوت، ضيقة الطرقات، رتيبة الحياة. لكن عصا النفط الساحرة قد مسّتها ذات يوم فأذاعت ذكرها في الخافقين، ونفخت في ربوعها روح حياة ونشاط جديدين، وأوفدت إليها القصاد من أربعة أطراف الأفق، ورفعت في جوانبها دياراً معمورة وأبراجاً آلية ومصانع صاخبة، وأفاءت عليها نعمة سابغة ضافية الذيول. وأفادت البلدة من هذه الحركة بركة وعمراناً وبسطة عيش، فاتسعت مرابعها وكثرت مبانيها ومغانيها وزاد سكانها عدداً ورفاهية، وأصبحت الأرض الفضاء التي تحيط بها عامرة بالمساكن والمعامل والأجهزة ومراكز السعي والنشاط.

بدأت أعمال الحفر في منطقة كركوك في اوائل نيسان 1927 بعد درس دقيق لطبقات الأرض، فلم تمض أشهر ستة حتى انبثق النفط من بئر بابا كركر على مسافة أحد عشر كيلومتراً شمال شرقي كركوك. اندفع المعدن السائل من سجنه الأرضي بقوة هائلة ودويّ شديد فارتفع إلى علو 25 متراً فوق فوهة البئر، وتدفق في الأراضي المجاورة مكوّناً بحيرة نفطية أغرقت العامر والغامر. واستمر تدفق النفط على هذا الشكل ثمانية أيام ليلاً ونهاراً حتى أمكن كمّ فوهة البئر وكبح جماح السائل المتفجر.

ووالت شركة النفط العراقية أعمال الحفر في نواحي مختلفة، فحفرت خلال تسع سنين ما يقارب خمسة آلاف متر

مكعب من الأرض، وعثرت على النفط في أماكن متعددة. غير أن الاستثمار تأخر سنوات حتى كشف طريق خطوط الأنابيب التي تصل المنابع النفطية بساحل البحر واتفق عى مدّها. وبوشر العمل في انشاء الأنابب في الأشهر الأولى من سنة 1932، وتمّ انجازها في 30 شهراً وبلغت كلفتها نحو عشرة ملايين دينار. وكان هذا المشروع من المشاريع الهائلة التي تستنفد القوى وتقتضي استخدام كل ما أبدعه العلم وأتقنته الصناعة من الآت وعدد. وقد قرّ الرأي على مدّ خطين للأنابيب يمتدان متوازيين من كركوك على ارتفاع 800 متر من سطح البحر، فيجتازان قعر نهر دجلة حتى يتفرّعا على مسافة 160 كيلو متراً عند حديثة الواقعة على الفرات. فيتّجه احدهما إلى الجنوب لينتهي في حيفا على طول 990كلم. وينحرف الخط الآخر إلى الشمال فيمر بالقائم وتدمر وحمص وينتهي في مناء طرابلس على طول 850 كيلومتراً. وشرع بتخطيط طريق الأنابيب، فعبّدت المسالك، وأعدت أحدث الآلات وأضخمها من السيارات والحفارات والناقلات والرافعات عدا الطيارات المستخدمة في نقل المهندسين والمديرين، وهيئت فرق متنقلة من العمال مزوّدة بالماء والطعام. وكانت كل فرقة تتألف من 30 موظفاً مسؤولاً وما يختلف بين 250 و 1200 عامل، فتنقل مضاربها في مراحل مسافة كل منها 50 كيلومتراً. وصارت الحفارات تحفر كل يوم

نحو 1600 متر من الخنادق إلى عمق 90 سنتيمتراً وبعرض 60 سنتيمتراً، مع الاستعانة بالبارود في نسف الصخور. وتوضع في الخنادق أنابيب فولاذية يقارب قطرها الـ 30 سنتيمتراً، تلحم قطعها بطريقة كهربائية وتغطى بطبقة من القار ومواد واقية أخرى قبل أن يهال عليها التراب. وتصبّ الأنابيب في أقصى نهايتها في أحواض ضخمة تسع عشرات الآلاف من الاطنان، كما تمد أنابيب أخرى إلى مسافة ألف متر ونيّف في البحر لصبّ النفط في البواخر التي لا تستطيع الدنوّ من الساحل. وأنشىء على طول خطوط الأنابيب اثنا عشر مركزاً للضخّ مجهزة بـ 245 محرّكاً ذات قوة 22500 حصان لدفع السائل الكثيف إلى الموانىء البحرية.

احتفل بافتتاح خطوط الأنابيب في 14 كانون الثاني 1935، وشرع بتصدير النفط من العراق بانتظام منذ ذلك الحين. وكان إنتاج النفط قد بلغ مائة ألف طن سنة 1929، فقارب المليون طن سنة 1934، وارتفع في السنة التالية على أثر البدء بتصديره إلى ثلاثة ملايين ونصف، ثم زاد بعد سنتين على أربعة ملايين من الأطنان. وتستخرج شركة النفط العراقية النفط من آبار منطقة كركوك التي ينوف عددها على الأربعين، وهي تقذف النفط الخام بضغط يتراوح بين 15 و 20 كيلوغراماً للسنتيمتر المربع وبكمية يقارب مجموعها 12 الف طن يومياً. ويرسل بالنفط

الخام المستخرج إلى معامل تفصله من الغازات الطبيعية العالقة به، ثم يصب في أحواض أولى محطات الضخ توطئة لاسالته في خطوط الأنابيب. ويصدر النفط العراقي إلى الخارج خاماً، لكن شركة النفط العراقية قد أنشأت مصفى لها بجوار بابا كركر لتجهيزها بما تحتاج إليه من المنتجات المختلفة[1].

ومنحت امتيازات نفطية إلى شركات أخرى لاستثمار النفط العراقي في النفطخانة بين مندلي وخانقين، والمنطقة الشمالية غربيّ نهر دجلة في القيارة، وجنوبيّ العراق في منطقة البصرة. وأصبح العراق في عداد الدول العالمية الكبرى المصدرة للنفط.

وقد مدّ خط أنابيب آخر قطره 16 عقدة (إنش) إلى طرابلس وبدأ الضخ فيه في تموز 1949. ثم مدّ خط آخر قطره 30 عقدة من كركوك إلى ميناء بانياس في سورية بطول 888 كيلومتراً، وهو أوسع خطوط الأنابيب. وقد أنجز سنة 1952 بكلفة 41 مليون باون استرليني. وبلغ مجموع أطوال هذه الخطوط 4540 كيلومتراً. وقد أوقف الضخ في الخط المنتهي إلى حيفا في سنة 1948 على أثر تأسيس دولة إسرائيل.

---

(1) من حديث للمؤلف أذاعه من اذاعة بغداد في 21 كانون الأول 1940 ونشر في مجلة غرفة تجارة بغداد، ثم أعيد نشره في كتابه «مباحث في الاقتصاد العراقي» (طبع بغداد، 1948).

وتم في سنة 1952 تعديل اتفاقيات النفط لصالح العراق. واشترك العراق سنة 1960 في تأسيس منظمة الدول المصدّرة للنفط (اوبك). وأصدر رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم في كانون الأول 1961 قانوناً يقضي باسترداد الأراضي غير المستثمرة من شركات النفط. وقد بلغ مجموع كميات النفط المستخرجة من حقول كركوك من 1934 إلى نهاية سنة 1960: نحو 270 مليون طن.

أنشأت الحكومة العراقية مصافي للنفط والدهون والقير وأخذت تستثمر الغاز الطبيعي. وفي سنة 1972 قامت بتأميم عمليات شركة نفط العراق، ثم أممت سائر الشركات الاجنبية.

وشيدت الحكومة العراقية في سنة 1976 انبوباً نفطياً جديداً عرضه 40 عقدة من كركوك إلى تركية يصبّ في خليج اسكندرونة على ساحل البحر المتوسط. بلغت كلفة الخط 850 مليون دولار دفع العراق منها 250 مليوناً وتركية 600 مليون. وبلغ طول الأنبوب 980 كيلومتراً منها 341 كيلومتراً في العراق و639 في تركية، وحصل الاتفاق مع تركية على أن يدفع العراق رسم مرور عبر تركية (بلغت الرسوم 100 مليون دولار سنة 1977)، على أن يكون لتركية الخيار في شراء 10 ملايين طن من النفط في السنة الأولى و14 مليون طن سنوياً بعد ذلك بأسعار متفق عليها. وبدأ

الضخ في هذا الأنبوب في أيار 1977.

تلك لمحة عن كركوك ونفطها ذكرتها آملاً أن يجد القارىء فيها بعض المتعة والفائدة.

مصادر البحث

1 ـ دائرة المعارف الإسلامية (بالانكليزية).

2 ـ دائرة المعارف البريطانية (بالانكليزية).

3 ـ عباس العزاوي: تأريخ العراق بين احتلالين (الأجزاء الثاني والثالث والرابع والخامس) (بغداد 1936- 1953). الكاكائية في التاريخ (بغداد، 1949).

4 ـ الدكتور مصطفى جواد: سيدات البلاط العباسي (بيروت، 1950).

5 ـ عبد القادر الخطيبي الشهرآباني: تذكرة الشعراء (نشره الأب انستاس ماري الكرملي، بغداد، 1936).

6 ـ الدليل العراقي الرسمي لسنة 1936.

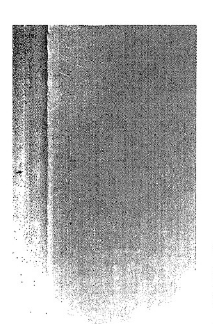
7 ـ جداول كبار موظفي الدولة العراقية (لسنوات مختلفة).

8 ـ إبراهيم الداقوقي: فنون الأدب الشعبي التركماني (بغداد، 1962).

9 ـ وحيد الدين بهاء الدين: من أدب التركمان (بغداد 1962) أعلام من الأدب التركي (بغداد، 1965).

10 ـ أحمد حامد الصرّاف: الشبك (بغداد، 1954).

جرائد ومجلات مختلفة ومعلومات شخصية.



هذا الكتاب

يتناول الكاتب في قسمه الأول تاريخ التركمان وعلاقتهم بالعراق، وأعلامهم المخضرمين على الصعيدين السياسي والعسكري، الذين نقلوا الخبرة والتجربة التي حصلوا عليها من خلال ممارستهم العملية في الدولة العثمانية.

أما في القسم الثاني من الكتاب فيتطرق المؤلف إلى أعلام التركمان وآثار الأدب التركي في بناء صرح الثقافة العراقية، مشيراً إلى إنجازاتهم في ميادين الأدب والشعر والادارة بشكل عام.

الناشر